



الثقافة العربية^{٢٥٨}

أسبق من ثقافة اليونان والعبريين

تأليف عباس محمود العقاد



المبنة المصرية العامة للكتاب

الثقافة العربية

أسبق من ثقافة اليونان والعبريين

رقم المكتبة: عباس محمود العقاد
٢٥٨

حقيقة مفاجئة أقدم الثقافات الثلاث

وهذه الثقافات الثلاث هي : العربية واليونانية
والعبرانية •

أقدمها في التاريخ هي الثقافة العربية ، قبل أن
تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور في العصور
الحديثة •

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج
إلى عناء طويل في إثباته ، ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع
عند الكثيرين من الأوروبيين والشرقيين ، بل عند بعض
العرب المحدثين ، موقع المفاجأة التي لا تزول بغير المراجعة
والبحث المستفيض •

وقد كان ينبغي أن يكون الجهل بهذه الحقيقة هو

المفاجأة المستغربة ، لأن الايمان بهذه الحقيقة التاريخية لا يحتاج الى أكثر من الاطلاع على الأبجدية اليونانية وعلى السفرين الأولين من التوراة التي فى أيدي الناس اليوم ، وهما : سفر التكوين وسفر الخروج ، ولا حاجة الى الاسترسال بعدهما فى قراءة بقية الأسفار •

فالأبجدية اليونانية عربية بحروفها وبمعانى تلك الحروف وأشكالها ، منسوبة عندهم الى قدموس الفينيقى وهو فى كتاب مؤرخهم الأكبر « هيرودوت » أول من علمهم الصناعات •

وسفر التكوين وسفر الخروج صريحان فى تعليم الصالحين من العرب لكل من ابراهيم وموسى عليهما السلام • فابراهيم تعلم من ملكى صادق ، وموسى تعلم من يثرون امام مدين ، وشاعت فى السفرين رسالة « الآباء » قبل أن يعرفوا باسم الأنبياء ، لأن العبرانيين عرفوا كلمة « النبي » بعد وصولهم الى أرض كنعان واتصالهم بأئمة العرب بين جنوب فلسطين وشمال الحجاز •

فيحق العجب ممن يجهل هذه الحقيقة التاريخية

المسجلة بالكتابة منذ ألوف السنين ، بل بالحروف التى
صبت الكتابة والكتاب •

الا أن الاشاعة الموهومة كثيراً ما تطفى على الحقيقة
المسجلة • ولا سيما الاشاعة التى تحتوى بالصولة الحاضرة
وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة • وقد أشاع الأوروبيون فى
عصر ثقافتهم وسلطانهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم
الى العلم والحكمة ، واختلط على الأوروبيين كما اختلط
على غيرهم قدم التوراة بالنسبة الى الانجيل والقرآن وقدم
الاسرائيليين بالنسبة الى المسيحيين والمسلمين ، فتوهموا
أن العبرانيين سبقوا العرب الى الدين والثقافة الدينية ،
وكتابهم نفسه صريح فى حداثة اسرائيل وحداثة ابراهيم
من قبله بالنسبة الى أبناء البلاد العربية •

وليس أعجب من الجهل بالحقيقة التى تظهر هذا
الظهور •

ليس أعجب من هذا الجهل الا أن تكون الأوهام
المشاعة بهذه القوة عند أقوى الأمم وعند أشهرها بالعلم
والثقافة •

فلو لم يكن فى الصفحات التالية الا أنها تكشف هذه
الأعجوبة فى ناحية من نواحيها لكان ذلك حسبها من
سبب يوجب علينا كتابة هذه الرسالة • فهى تفصيل لما فى
هذه الأسطر القليلة من اجمال ، وأيسر تفصيل كاف فى
مجال كهذا المجال •

من هم العرب

وجد العرب فى ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم ، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها وتمضى على سنة التطور عسراً بعد عصر ، الى أن تبلغ الطور الذى عرفناه منذ أيام الدعوة الاسلامية .

وهذه هى القاعدة العامة فى تسمية الأمم وفى تطور اللغات ، فليس العرب بدءاً فيها بين أمم المشرق والمغرب .
فالهند - مثلاً - كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهرها بنهر « الهندوس » وقبل أن يطلق اسم هذا النهر على شبه الجزيرة كلها .

والحبشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم ويقصدون به بلاد الأحباش أى السكان المختلطين ، وقبل أن يسميها اليونان باسم « أثيوبية » أى

بلاد الوجوه المحترقة وقبل أن يسميها العبرانيون باسم
بلاد الكوشيين لأنهم ينسبون أهلها الى كوش بن حام
ابن نوح •

وكانت بلاد السكنداف معمورة قبل أن يسميها أهل
الجنوب بلاد « النورديك » أى الشماليين •

وكانت انجلترا معمورة بطائفة من السكان بعد
طائفة ، يوم أطلق عليها اسم انجلاند أو انجلترا ، أو أرض
الأناجلة angles الذين قدموا اليها فى القرن الخامس بعد
الميلاد ، ومن ملوكها من كان يحلولة أن يسميها بلاد
الملائكة Angellykes لأن البابا غريغورى اختاره
لها بدلا من اسم بلاد الأناجلة الذى يشبهه فى نطقه
Engeliscé • • فراح بعضهم يرسم صورة « ملائكية »
على عملتها الذهبية ، والتبس الأمر على أتباعهم فأوشك أن
يخلط عليهم الحقيقة لولا قرب العهد باسم الأناجلة واسم
موطنهم المعروف •

وكل هذه الأمم كانت لهم لغات يتكلمونها قبل ألفى

سنة ولا يتكلمها اليوم أبناؤهم على النحو الذى كان يفهمه
آباؤهم ، ولا يشذ عن ذلك أمة من الأمم ولا لغة من
اللغات •

وقد مضى على العرب أكثر من ألفى سنة وهم
معروفون بهذا الاسم الذى يطلقونه على أنفسهم ويطلقه
عليهم غيرهم ، ولا يزال أصل التسمية وتاريخ إطلاقها
غير معروفين على التحقيق الى اليوم •

هل أطلق عليهم اسم العرب لأنهم كانوا يسكنون
موقع الغرب من أمة أخرى يحل فيها حرف العين محل
حرف الغين كما يحدث فى بعض اللهجات ؟

هل أطلق عليهم هذا الاسم من العرابة بمعنى الجفاف
أو الصحراء فى لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟
هل أطلق عليهم نسبة الى يعرب بن قحطان أو نسبة
الى « عربية » من أرض تهامة كما يقول ياقوت ؟

ان مؤرخى العرب يختلفون فى ذلك كما يختلف
فيه غيرهم • ويقول ياقوت فى معجم البلدان بعد أن أشار

الى ذلك : « ان كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب ، سموا عربا باسم بلدهم العربيات • وقال أبو تراب اسحاق بن الفرخ : عربية باحة العرب ، وباحة العرب دار أبي الفصاحة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام • • أما النبطي فكل من لم يكن راعيا أو جنديا عند العرب من ساكني الأرضين فهو نبطي • • • »

وكما قيل ان العرب سموا بهذا الاسم لأنهم نزلوا الى الغرب من منازل غيرهم ، يقال انهم سموا شرقيين Saracena عند قوم من أوربة ، وأن الاسم في أصله كان يطلق على قبيلة عربية تسكن الى الشرق من جبل السراة • ولعلهم سموهم « سراتيين » نسبة الى الجبل نفسه وتحرف الاسم بلغات الأوربيين الى سراسين ! •

نذكر هذه الخلافات لنقول ان وجود العرب في ديارهم سابق لها متقدم عليها ، وان الثقافة العربية ينبغي أن تنسب الى أمتها قبل أن تسمى بهذا الاسم أو بذلك من الأسماء المختلف عليها • فلا اختلاف على نسبة الثقافة الى الأمة كائنا ما كان الاسم الذي عرفت به عند جيرانها

وعند سائر الأمم التي تتحدث عنها • ونختار لها اسمها على
حسب مصادره ومناسباته في عرفها •



ولا خلاف في علاقة العرب الأقدمين بالجزيرة
العربية ، ولا في قدم العمران بهذه الجزيرة •

ولا خلاف كذلك في قدم اللسان العربي فيها ولا في
أنه أقدم لسان تكلم به سكانها الأقدمون ولم يعرف لهم
لسان قبله مخالف له في أصوله وخصائصه التي تميز بها
بين اللغات العالمية •

أكان المتكلمون بهذا اللسان قبل ثلاثين قرنا مقيمين
بالجزيرة العربية أم كانوا مقيمين في موطن آخر ثم هاجروا
إليها ؟

هنا تختلف الأقوال بين مواطن ثلاثة ، هي الحبشة
وبادية الشام وأعلى العراق •

لكن الحبشة ليست مصدر الحاميين والساميين في
جهة واحدة • فالساميون أخرى أن يكونوا وافدين إليها

على قلة محدودة ، وليس من المواقف للأوضاع التاريخية ولا للمألوف من الهجرة هناك أو في جهات أخرى أن يكون الساميون المنتقلون من الحبشة أكثر من عشرات أمثالهم في موطنهم الأصيل بالبلاد الحبشية • ولم يحدث في عصور التاريخ المعروف أن كان المهاجرون من الحبشة إلى جنوب الجزيرة يزيدون عددا على الذين يهاجرون من جنوب الجزيرة إليها •

كذلك لم يحدث في حدود التاريخ المعروف أن ترحل الجماعات الكثيرة من بلاد الهلال الخصيب أو من أعالي العراق إلى الصحراء العربية • فليس هذا مما حدث في الواقع ولا مما يوافق المعهود في بواعث الهجرة وحركاتها المألوفة •

فمن المألوف أن يحدث الجفاف والجذب في البلاد الصحراوية فيرحل عنها أهلها ، ومن التاريخ الواقع أن هذا قد حدث فعلا غير مرة في هجرة القبائل من جنوب الجزيرة وأواسطها إلى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم والمرعى الوفور ، ولكنه لم يؤلف ولم يحدث قط أن

ينعكس الأمر فترحل القبائل أفواجا أفواجا من أرض الماء والمرعى الى أرض تتخللها الصحارى الواسعة ، ويطرأ عليها الجفاف والجذب فى عهود متلاحقة ، تكاد أن تنتظم فى مواعيدها وأدوارها •

فمن الثابت أن جنوب الجزيرة كان مأهولا قبل ثلاثة آلاف سنة ، وكانت له عمارته ومبانيه التى لا تنشأ فى قرون قليلة ، فهل كان وفود هؤلاء الى الجنوب بعد سكان آخرين سبقوهم ثم انقرضوا أو انهزموا وخلفهم الوافدون على بلادهم ؟ فمن هم أولئك السكان الأولون ؟ وما لغتهم ؟ وما الداعى الى اقتراض وجودهم ؟ ومن أين جاءهم الوافدون اللاحقون وتغلبوا عليهم بالقوة التى تهزمهم ؟ وما هى لغتهم وعلاقتها بالعربية ؟

كل ما يمكن أن يقال عن ذلك انه تخمين لا دليل عليه ولا موجب له ولا موافقة بينه وبين تجارب الواقع فى أماكن الهجرة المطروقة من قديم الزمن داخل الجزيرة العربية أو من حولها •

ولا صعوبة فى تصور الهجرة من الجنوب الى الشمال

على حسب التجارب الواقعة ، فلا تضطربنا وقائع التاريخ الى
السؤال عن أبناء البلاد الأصلاء في العراق أو بادية الشام
أين ذهبوا ومن هم في أصولهم وما هي لغاتهم وأبائهم ،
فان التاريخ يدلنا عليهم وعلى بقاياهم ، وآثارهم حيث
أقاموا قريبة من مواطنهم سواء كانوا من السومريين أو من
الآريين أو من الطورانيين على التخوم الفارسية أو تخوم
الصين ، بعضهم لبث في الأرض ، وبعضهم جلا عنها الى
ما وراء حدودها ، وكلهم ترك من مخلفاته ما يتركه المغلوب
المقيم أو المغلوب الذي زال عن البلاد •



فالثقافة العربية اذن هي ثقافة الأمة التي نشأت تتكلم
اللغة العربية وعاشت تتكلمها كما كانت على الألسنة في كل
دور من أدوارها على سنة التطور في جميع اللغات •

وقد كان أشهر اللغات السامية وأشيعها في أواخر
القرن الرابع قبل الميلاد ثلاثا بين جنوب الجزيرة وشرقها
الى الشمال وغربها الى الشمال ، وهي : اليمنية والآرامية
والكنعانية ، مما يدل على أنها نبتت في الجزيرة من الجنوب

الى مواطن المهجرة التى درجت عليها القبائل منذ فجر التاريخ ، فى طريق بحر العرب شرقا الى وادى النهرين ، أو طريق البحر الأحمر غربا الى فلسطين •

ثم شاعت الآرامية وغلبت على سائر هذه اللهجات وتفرعت منها النبطية التى اتفقت الروايات على أنها أم لهجات الحجاز • ولم تكن الآرامية بعد شيوعها غريبة عن المتكلمين بالكنعانية أو الحميمية وعن الكتّابين بالحروف النبطية أو حروف المسند • فكان المقيمون والراحلون بين هذه الأرجاء يتخاطبون بها كما يتخاطب أبناء الأقاليم فى القطر الواحد ، أو كما يتخاطب أبناء وادى النيل اليوم من الاسكندرية الى الخرطوم ، مع اختلاف اللهجات والألفاظ فى بعض المفردات •

ونحن نعلم أن مؤرخى العرب كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعا الى « ارم » ويسمونهم بالأرمان كما جاء فى تاريخ سنى الملوك لحمزة الأصفهاني • ويجوز أن يكون الآراميون من سلالة هؤلاء الأرمان هاجروا الى وادى النهرين فى تاريخ مجهول ، ولكن تاريخهم المعلوم

يرجع الى عهد دولتهم التى حكمت بابل ، وقام منها بالأمر
حمورابى صاحب التشريع المشهور (سنة ٢٤٦٠ ق م)
حيث سادت اللغة الآرامية وادى النهرين وبادية الشام
وأرض كنعان وبلاد الأنباط ، وظهرت لهجتها العامة - كلاما
وكتابة - فى كل قطر من هذه الأقطار .

يقول صاحب كتاب « الأبجدية : مفتاح تاريخ
الانسان » « الآرامية فرع كبير يرجع الى الهجرة السامية
الثالثة ذكرت فى مصادر التوراة وفى الكتابة المسمارية .
ويطلق اسم آرام الذى ورد فى التوراة على سلالة عنصرية
كما يطلق على الإقليم الذى تسكنه تلك السلالة ، وجاء
فى أسماء الأمم بسفر التكوين أن آرام جد الآراميين وقيل
عنه انه ابن سام ، وجاء فى موضوع آخر انه حفيد ناحور
أخى ابراهيم ، ويقال عن يعقوب انه آرامى تائه ، وعن
أمه وزوجاته انهن آراميات . وباستثناء لفظة غامضة فى
الحفائر الأكادية فى النصف الثانى من الألف الثالثة قبل
الميلاد ، تعتبر رسائل تل العمارنة المسمارية فى القرنين
الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد أقدم اشارة اليهم
باسم اخلام Akhlamn أو Akhlami أى الأحلاف الذين

يظن أنهم هم أحلاف آرام المذكورين في وثائق القرن
الثاني عشر قبل الميلاد • وهم يسمون في المصادر الآشورية
(أروميو) أو (أراميو) وجمعهم آرامي • •

الى أن يقول : « ان موطن الآراميين الأول غير
معروف » • وهم يوصفون في ألواح تل العمارنة التي
تقدم ذكرها بأنهم أفواج مترحلة مغيرة ، ويرجح أنهم
قدموا من جهة الشرق الشمالى لبلاد العرب الى بادية
الشام من طريق ، وقدموا من الطريق الآخر الى العراق •
وعند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد انتهى سلطان
الحثيين والحثيين Mitanni على تلك الأرض • وظهرت
الامارات الآرامية الصغيرة في الشمال الشرقى والشمال
الغربى من وادى النهرين ، ثم طرأت على توزيع السكان
في سورية الشمالية بعد استقرار الموجة الآرامية بين
القرنين الثاني عشر والحادى عشر قبل الميلاد طوارئ
واسعة النطاق • • • واغتنت قبائل الآراميين فرصة هذه
الطوارئ فأقامت بقوة السلاح ووفرة العدد سلسلة من
الممالك الصغيرة في أخصب المواقع من شمال العراق

وجنوبه الى شرق البادية السورية ، وأمكن بفضل تدجين
الجمال العربى حوالى نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد
تيسير طرق القوافل تيسيراً كبيراً • فأقيمت فى جوانب
البلاد مراكز للتجارة الغنية ، أشهرها تدمر أو بلد
النخيل ، •

وبعد الإشارة الى أدوار الضعف التى انتابت الآراميين
بعد ذلك قال :

« ان فقدان الحرية السياسية لم يكن معناه نهاية
التاريخ الآرامى ، بل كان هذا الضعف الذى أصاب
الحكومة فاتحة التفوق فى الثقافة الآرامية ومسائل الاقتصاد
الذى عم آسيا الغربية • • فاصطبغت سورية كلها وجانب
كبير من وادى النهرين بالصبغة الآرامية ، وأصبحت
اللغة الآرامية هى اللغة الدولية فى ذلك العهد ، وأصبحت
على عهد الدولة الأخمينية الفارسية إحدى اللغات الرسمية
فى الامبراطورية ، ولساناً عاماً يتكلم به التجار من مصر
الى آسيا الصغرى الى الهند • وبلغ من قوة اللغة الحيوية
أنها شاعت فى الاستعمال بعد ألف سنة من ذهاب الدولة

الآرامية ، وعاشت اللهجات التي تفرعت عليها قروناً أخرى
في بعض القرى النائية (١) ، •

وتمام هذا الكلام عن غلبة الآرامية أنها كانت تنازع
العبرية بين اليهود وهي لغتهم الدينية • ومن ذلك ما جاء
في الأصحاح الحادى والثلاثين من سفر التكوين « أنهم
أخذوا حجارة وعملوا رجمة ودعاها لابان (يجر
شهدوتا) • • وأما يعقوب فدعاها جلعيد ، وقال لابان : هذه
الرجمة شاهدة بينى وبينك اليوم » •

ومعنى « يجر شهدوتا » بالآرامية حجر الشهود ،
وهى قريبة من لفظها ومعناها باللغة العربية الحديثة ، أو هى
اللغة العربية كما كانت تنطق فى ذلك الدور من أطوارها •
ثم غلبت الآرامية على العبرية فى المعابد والكتب
الدينية ، فترجمت إليها كتب التوراة والتلمود ، وكتبت
بها بعض الأسفار أصلاً من عهد عزرا ودينال • فلما كان
عصر الميلاد كانت الآرامية هى اللغة التى يتكلمها السيد

The Alphabet. A Key to the History of Mankind, (١)
by David Diringer.

المسيح ويجرى بها الخطاب بينه وبين تلاميذه وبينه وبين المستمعين اليه في عظاته ووصاياه •

جاء في الاصحاح الخامس من انجيل مرقس حكاية عن السيد المسيح : « وأمسك يد الصبية وقال لها : طليثا قومي ، وتفسيره •• لك أقول قومي » •

وجاء في الاصحاح الرابع عشر : « وقال يسوع : يا أبا - الأب - كل شيء مستطاع لك » •

وجاء في الاصحاح الخامس عشر منه : « وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم : الوي • الوي • لما سبقتني ، وتفسيره : الهى • الهى • لم تركتني ؟ •• ومعنى سبقتني هنا « جاوزتني وتخليت عني » كما يمكن أن تعنى اليوم بالعربية التى تتكلمها •

وعلى ذلك يصح أن نقول : ان الآرامية هى عربية تلك الأيام فى مواطنها ، وأنها قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى بعد تطورها نحو ثلاثة آلاف سنة لا يستغرب أن يحدث فيها مثل هذا الاختلاف فى نطق الألفاظ وتركيب بعض العبارات •

قال صاحب الكتاب الكنز فى قواعد اللغة العبرية وهو

يتكلم عن الآرامية ويسمّيها البابلية : « ثم انظر فيما يكون من التشابه الظاهر بين العربية والبابلية ولاسيما في الاعراب وحركاته ، كالتنوين مثلاً . فهو في البابلية ميم وفي العربية نون ، وهذان الحرفان من أحرف الابدال ، ونحن نعرف أن من العرب من يجيز ابدال أحدهما بالآخر ، ومنها علامة الجمع : فهي في البابلية الواو والنون كما أنها في العربية الواو والنون أيضاً ، وفي السريانية الياء والنون ، وفي العبرية الياء والميم ، ومنها أن جميع الأفعال في البابلية أقرب الى صيغها في العربية . فصيغ الأفعال التي وجدوها في هذه اللغة تبلغ اثنتي عشرة صيغة ، وأكثر هذه الصيغ مشهور معروف في العربية والعبرية والسريانية (١) » .



وجملة القول أن الثقافة الآرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها الى عنصرها ، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة الى أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى . فكل ما استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية .

(١) كتاب الكنز لمؤلفه الدكتور محمد بدر .

أسماء أخرى

بعد تحقيق المقصود باسم العرب فى الزمن القديم نستطرد الى تحقيق أسماء الأمم والبلاد التى عاصرت العرب فى تلك الحقبة كما عرفها اليونان وانتقلت منهم الى الأوربيين والشرقيين بعد شيوع الثقافة اليونانية • فان تحقيق هذه الأسماء لازم لمعرفة المدى الذى انتهت اليه علاقات اليونان بتلك الأمم ، وتحقيق ما استفادوه منها أو استفادتهم منهم على اختلاف الروايات والدعاوى فى الأزمنة المتأخرة •

فاليونان يتوسعون كثيراً فى تسمية البلاد والأمم وإطلاق الاسم على موضعه وعلى المواضع التى تجاوره فى بعض الأحوال • وقد يتفق لهم عكس ذلك فى تخصيص جزء من الأرض بالاسم الذى يعمها ويشملها مع غيرها ، لرابطة المشابهة والجوار •

ومن ذلك أنهم أطلقوا اسم سورية على الاقليم المشهور بين شواطئ البحر الأبيض الشرقية وبلاد الروم وتخوم العراق ، ثم توسعوا بها حتى شملت « اشورية » وأصبح اسم السريان عندهم علماً على الآراميين في الرقعة الواسعة التي يسكنونها من وادي النهرين الى سيناء وأطراف الحجاز •

وهم يطلقون اسم فينيقية على شاطئ فلسطين الى الشمال والجنوب من مدينة صور التي اشتهر أبناؤها الملاحون عندهم باسم الفينيقيين ، ولكن فينيقية كما يدل عليها اسمها كانت اسماً لبلاد النخل في الاقليم كله ، من كلمة فينقس عندهم بمعنى النخلة $\Phi o\lambda\upsilon\epsilon$ وتقابلها عند الرومان كلمة Palmyra التي أطلقت على مدينة « تمر » أو « تدمر » في شرق البقاع ••• و « تمر » هي الكلمة السامية التي تقابل كلمة Palm بمعنى النخلة في بعض اللغات الأوربية الى اليوم •• ولا يخفى أن أزجج الأقوال عن أصل الفينيقيين الأقدمين أنهم نشأوا عند الخليج العربي في بلاد النخيل وتحولوا منه الى فلسطين يوم كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيها من النخيل •• واسم مدينتهم

« قرطاجة » التى بنوها بعد ارتحالهم من فلسطين الى شاطئ البحر الأبيض الجنوبى قريب جداً - فى أصله - من الكلمة الآرامية « قارة حدائه » أى القرية الحديثة ، وتحريفها الى قرتاشة وقرطاجة على ألسنة الرومان قريب جداً بعد اسقاط الحاء التى لا ينطق بها الغربيون •

واليونان وضعوا اسم « أثيوبية » - ومعناه الوجوه المحترقة - وأرادوا به البلاد التى عرفها العرب قديماً وحديثاً باسم الحبشة ، ثم شملوا بها اليمن وسموها بأثيوبية الآسيوية ، وأوشكوا بعد ذلك أن يعمموا اسم الأثوبيين على الأفريقين السود جميعاً ، وهم الكوشيون فى عرف اليهود والناقلين عنهم من شراح الكتب الدينية •

ومصر القديمة سماها اليونان باسم مدينة كبتوس « قفط » ثم أطلقوا اسم « جبتوس » على القطر كله ، وهو الاسم المشهور الآن فى اللغات الأوروبية •

والهند سميت كلها باسم نهرها المعروف فى الغرب الشمالى منها ، وما زالت حتى أصبح يقال عن « الأندوس » انه نهر فى الهند ، وهى منسوبة اليه •

وعلى هذا يحدث أحياناً أن يتكلم اليونان عن أثيوبى
وهو يمنى ، أو عن فينيقى وهو سورى ، وعن آشورية
assyria وهم يقصدون سورية syria وعن هؤلاء
جميعاً وهم يقصدون المتكلمين بالآرامية التى كانت أوسع
اللغات انتشاراً بين جميع هذه البلاد .

الكتابة العربية

ثبت من الآثار المحفوظة أن المصريين الأقدمين تطوروا بالكتابة من رسم الصور الى رسم المقطع الى رسم الحروف التي تسمى اليوم بالحروف الأبجدية ، وتسمى عند الأوربيين عامة بحروف « الألف باء تاء » alphabet نقلا عن العربية .

وقد تبينت رسوم بعض الحروف المصرية القديمة من ألواح سيناء ، وهي حلقة الاتصال بين الحروف الأولى وبين الحروف على أشكالها المتقاربة التي تطورت بعد ذلك في مختلف اللغات .

الا أن الحروف المصرية القديمة كانت مقصورة على الكتابة الدينية وكتابة الدواوين وما شابهها من المراجع الرسمية ، وانما انتشرت في المعاملات العامة بعد أن نقلت من سيناء الى البلاد الواقعة على طرق التجارة الشرقية ،

بجميع مواصلاتها برا وبحراً من الهند الى شواطئ البحر الأبيض وحدود البلاد المصرية •

وقد كانت مراكز التجارة الكبرى على هذه الطريق في بلاد العرب ، من خليج العرب الى عدن الى خليج العقبة ، الى مدن فلسطين ومدن الحدود الشرقية في مصر القديمة •

ولم يكن من المصادفة المجهولة أن تظهر في لغة العرب خطوط الحرف المسماري وخطوط الحرف المسند وخطوط الحرف النبطي بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين •

فان التجارة التي تحتاج الى المعاملة الكتابية تجري على خط المواصلات من خليج العرب الى عدن الى العقبة الى ما جاورها من بلاد الأنباط والكنعانيين ، وهذه هي على التوالي موطن الخط المسماري والخط المسند والخط النبطي وما تفرع عليه •

وتجري المواصلات على غير هذا الخط من طريق البادية بين وادي النهرين وشواطئ البحر الأبيض ، فليس

من المصادفة المجهولة أيضاً أن توجد على طريق هذه
المواصلات بقايا الكتابة الصفوية والكتابة اللحيائية
والشمودية في حوران وتدمر والحجر من ديار ثمود • ففي
هذا الطريق يتقابل أصحاب القوافل من الشرق الى الغرب
ومن الغرب الى الشرق ، كما يتقابلون بين الحجاز والشام
وبين الشام والحجاز •

والغالب على التجارة العربية أنها تسلك طريق البر
على ظهور الجمال ، ولكنها لم تكن معزولة عن البحر كما
يتوهم الكثيرون لاعتقادهم أن أصحاب سفينة الصحراء
لا يعرفون سفينة غير الجمل ، ولا يركبون مطية البحر
أو يحسنون قيادتها كما يحسنون قيادة المطايا على الرمال •
فان العرب ركبوا البحر قديماً في المحيط الهندي وسبقوا
الملاحين الى شواطئ أفريقية الشرقية في الجنوب ، ووجدت
في بلادهم صناعة بناء السفن عند العقبة وعمان ، ولم يكن
سليمان الحكيم - بطبيعة الحال - أول من بنى سفناً بجوار
العقبة ، ولكنه وجد هذه الصناعة وعمل سفنه فيها كما جاء
في سفر الملوك الأول • « وعمل الملك سليمان سفناً في

عصيون جابر اتى بجانب أيله على شاطئ بحر سوف فى
أرض أدوم » •

وسميت هذه الجهة قبل الاسلام بفرج الهند كما
قال الطبرى ، لأنها كانت ولاشك تتلقى التجارة من طريق
البحر والبر • ولاتزال على اتصال بالملاحة البحرية مع
اتصالها بالقوافل على ظهور الجمال •

ويقول المسعودى ان الملاحين العرب كانوا يديرون
قيادة السفن ويدونون تجاربهم فى الكتب المتوارثة عن
آبائهم من زمن قديم ، وكان فى بحر الهند كما قال :
« مشائخ ولدوا ونشأوا من ربابين وأشاتمة ووكلاء
وتجار ، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون
عليها » •

ومثل هذه الصناعة لا تنشأ فى سنوات ولا فى أجيال
قليلة • فلا بد لها من أجيال بعد أجيال طوال •

على أن الأمر المهم فى هذا التاريخ أن المواصلات
كانت قائمة دائمة على هذه الطرق القديمة من أوائل
عصورها ، وليس بالمعقول أن يكون الأمر غير ذلك بحكم

الموقع وحكم العلاقة بين المشرق والمغرب • فاذا استخدم الناس الكتابة في معاملاتهم التجارية فليس في العالم المعمور يومئذ موقع أولى باستخدامها من البلاد العربية ، وليس من المصادفة كما تقدم أن تكون الخطوط المسمارية وخطوط المسند وخطوط الحروف النبطية أول ما تطور من حروف الأبجدية بعد مرحلتها التي بلغت في ألواح سيناء •

ومن الواضح أن صناعة السفن لم تكن عامة في بلاد العرب وما جاورها عموم الملاحة على شواطئها في البحرين؛ الأبيض والأحمر • وإنما توجد صناعة السفن حيث تيسر وسائلها من الأخشاب والمعادن ومواد اللحام والطلاء ، وحيث تيسر إلى جوارها مراسي السفن للبناء والإصلاح والمأوى ، ولهذا كانت شواطئ البحر الأبيض الشرقية أعمر الشواطئ بمراكز هذه الصناعة ومراكز الملاحة معها • لأنها نهاية الطرق البرية من قبل آسيا ، وبداية الطرق البحرية إلى القارتين الأوروبية والأفريقية ، وإلى جوارها غابات الشجر الذي يصلح لبناء السفن وموارد المواد المتنوعة التي تدخل في صناعتها • فكانت شواطئ فلسطين ولبنان أعمر الشواطئ الشرقية بأسباب الملاحة

والملاحين ومراكز التجارة التي تصدر من البلاد أو ترد
إليها من خارجها ، وكانت هذه الشواطئ هي التي اشتهرت
عند اليونان باسم « فيزيقية » ونسبوا إليها كل ما استوردوه
من بلاد العرب على طريقها ، وتواتر عندهم أنها البلاد
التي تلقوا منها الحروف وعلم الكتابة كما سيأتي في
الفصول التالية •

الأبجدية اليونانية

تعلم اليونان الكتابة وأخذوا رسم الحروف من « قدموس » الفينيقي كما قالوا في تواريخهم ورووا قبل ذلك في أساطيرهم المتواترة ، مما يدل على قدم العهد باعتمادهم في ثقافتهم على المصادر الفينيقية •

وأيا كان قول المؤرخين والرواة فهذه المسألة - مسألة الأبجدية - من المسائل التي لا حاجة بها الى التاريخ والرواية • لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية ، سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب •

فالأبجدية تسمى عند اليونان بالـ « ألفابيتا » وتبدأ بالألف والباء والتاء ، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب •

وليس لأسماء الحروف معان مفهومة في اللغة اليونانية،

ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى فى لغتنا العربية
العصرية ، فضلا عن اللهجات العربية الغابرة •

وأقرب هذه الحروف الى المعانى العربية الشائعة فى
أيامنا حرف الباء من بيت ، وحرف الجيم من جمل ، وحرف
العين من عين ، وحرف الفاء من فم ، وحرف الكاف من
كف ، وحرف الميم من ماء ، وحرف الياء من يد •

وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى كما
يرى فى شكل البيت وشكل رقبة الجمل وشكل العين
وشكل الفم ، وغيرها من الأشكال •

وإذا رجعنا الى نطق أسماء الحروف كما شاعت أول
استعمالها فى البلاد العربية تبينت العلاقة بين أشكالها
ومعانيها جميعا بغير استثناء حرف واحد من الحروف ،
فكلها أوائل كلمات مفهومة من بقايا الكتابة التصويرية
التي ترسم الشكل كله وتأخذ من الكلمة حرفها الأول
عند الكتابة بالحروف •

وليس من اللازم أن تكون الحروف كلها قد شاعت
وعمت على صورة واحدة فى وقت واحد ، اذ من المحقق

أن حروف العلة تأخرت زمنا طويلا بعد الحروف الساكنة
كما نرى من كتابة المبتدئين الى اليوم • فان الطفل الناشئ
الذى يتعلم الهجاء لا يكتب حروف المد اذا سمع الكلمة
ممن يملئها عليه •

كذلك يثبت من تاريخ الكتابة أن الحروف المتشابهة
نشأت على التدرج ، لتمييز الأصوات المتشابهة أو التي
يسهل الابدال بينها ، كالتاء والثاء ، والحاء والحاء ، والذال
والذال ، والعين والغين ، وغيرها من المتشابهات في نطقها
ورسمها ، فانها تتبدل في لفظها اليوم كما كانت تتبدل منذ
مئات السنين ، ويتبين من تاريخ التدرج في الكتابة أن
الحروف المتشابهة وضعت حيناً بعد حين للتمييز بينها بعد
التباس النطق بها ووضوح الحاجة الى تمييزها ببعض
العلامات ، كعلامات النقط والتذييل •

ولهذا يرجح المؤرخون أن اليونان نقلوا حروفهم
من البلاد العربية جميعا ولم يقتبسوها كلها دفعة واحدة من
الفينيقين • ويرى من كتاب خيرشوف Kirchhoff بن
الأبجدية اليونانية أن حروف الجيم واللام والسين Γ.Λ.Σ.

أقرب الى حروف المسند أى الحروف اليمينية فى الجنوب ،
متما الى الحروف الفينيقية أو حروف النبط فى الشمال •
وقد يعزى الاقتباس الى رواد الرحلات من اليونان
فى بلاد « العربية السعيدة » أو بلاد اليمن كما عرفوها •
ومن الباحثين من يرجع بها الى عهد سابق لعهد الرحلات
اليونانية بزمان طويل ••

ويخطر لهؤلاء الباحثين أنها أثر من آثار حضارة
عربية موغلة فى القدم وصلت الى بلاد اليونان ، كما وصلت
الحضارة العربية الى الأندلس فى الأزمنة الحديثة بعد
الميلاد •

يقول مرجليوت فى الصفحة الحادية عشرة من كتابه
عن الصلات بين العرب وبنى اسرائيل :
« يرد على الحاطر سؤال عن أسماء المواقع التى تظهر
على خريطة اليونان القديمة كعسكرا : أى المعسكر ،
وقندس : أى الجبل من القند وهو الجبل العظيم باللغة
العربية ، ولاريسا : أى العريش أو الخيمة ، الى أمثال
هذه الأسماء التى تشبه أسماء المواقع فى الأندلس بعد
الفتح الاسلامى ، فيبادر الينا السؤال : ألا تشير هذه

الأسماء الى حضارة عربية عريقة وصلت الى اليونان ومعها
حروف الأبجدية قبل أن يصل اليها الفينيقيون بحروف
تخالفها (١) ، •

وليس هذا الاحتمال بعيد ، لأن آثار الكتابة العربية
شوهدت في جزر الأرخيل بحروف عربية على غير رسم
الحروف الفينيقية ، ولأن تاريخ الاحتلال الفينيقى لبلاد
اليونان على قدمه ، يدل على سبق الهجرة اليها من البلاد
الشرقية ، كما يدل على تتابع الهجرة قبل ذلك من الناحية
الآسيوية ، حيث وصلت •

وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقباس
فلا خلاف في أمرين : أحدهما أن الأبجدية اليونانية
منقولة عن أبجدية سبقتها ، وأن هذه الأبجدية السابقة
هى الأبجدية العربية التى تدل عليها ألفاظ حروفها
وأشكالها ومعانيها •

واذا كانت هذه الحقيقة غنية عن أقوال المؤرخين
والرواة فلا بد معها من حقيقة أخرى مثلها فى الثبوت

(١) Relations between Arabs and Israelites, by Mar-
goliath.

والوضوح بغير حاجة الى اسناد من التاريخ أو الرواية •
تلك الحقيقة الأخرى هي انتقال لوازم الحضارة
وصناعاتها الأولية على الأقل مع انتقال الكتابة وانتقال
أساليب استخدامها في المعاملات ، فان الأمة المتعلمة لا تأخذ
الكتابة من معلمها وتترك ما عندهم من صناعة السفن
والملاحة ، ومن معارف الفلك والجغرافية التي يعتمدون
عليها في السياحة ، ولا مخلص لها من الشعور بالحاجة الى
أدوات الحضارة التي يجلبها اليهم أصحاب السفن التي
تدل ببنائها وبما تحمله من بضائعها على التقدم في العلم
ومرافق العيش ومطالب الحياة •

فلو لم يذكر التاريخ شيئا عما استفاده اليونان من
صناعات البلاد العربية ومعالم حضارتها لكانت هذه الفوائد
من حقائق البداهة التي تستغنى عن التاريخ ، ولكن
التواريخ اليونانية ، بل الأساطير الشعبية ، تسجل هذه
الحقيقة وتذكرها كما تذكر الحقائق المسلمة التي لا داعي
لتمويهها ولا للمغالطة فيها ، ولعلمهم كانوا يذكرونها بشيء
من الفخر لأنهم تعلموا حيث وجدوا العلم الضروري ولم
يهملوه •

ومن العرب الأقدمين تعلم اليونان صناعات الحضارة

يقول هيرودوت في الكتاب الخامس من تاريخه :
« والآن نذكر أن الفينيقيين الذين جاءوا مع قدموس واليههم
ينسب الجفيريون ، قد أدخلوا معهم الى اليونان بعد قدومهم
الى بلادهم صناعات كثيرة متنوعة ، منها : صناعة الكتابة التي
كانوا يجهلونها على ما أحسب ، قبل ذلك . فنقلوا
حروفهم - أولاً - على مثال الحروف الفينيقية بغير
تصرف . ثم تغيرت مع الزمن لهجاتهم فتغيرت معها رسوم
حروفهم ، وقد كان الآيونيون أكثر الاغريق الذين
كانوا يومئذ يقيمون في تلك البلاد حيث نزل الفينيقيون ،
فاقتبسوا الحروف الفينيقية مع تعديل قليل في رسم بعضها .
ومازالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية انصافاً لمن نقلوها
اليهم ، وقد كان الآيونيون يسمون الورق بالقديد لأنهم

كانوا يكتبون على الجلود عند ندرة صحائف الكتابة •
وما برح البرابرة يكتبون عليها الى هذه الأيام • وقد رأيت
بنفسى كتابة بالحروف القدموسية محفورة على بعض
القوائم المثلثة فى معبد (أبولون أسميناس) بشية البوطية ،
رسومها تحكى الرسوم الآيونية ، وعلى احداها هذه
العبارة :

« أقامنى أمفثريون من عهد مقدم التلبوية » •• فهى
قريبة من عهد لا يوس بن لابداكوس بن بوليدورس
ابن قدموس •• وعلى قائمة أخرى نقشست هذه العبارة
من شعر العروض السداسى : وهبنى سكاوس الملاك
للمشمس الساطعة بعد فوزه : هبة جميلة معجبة •• ولعله
سكاوس بن هيوكون ! فان كان هو الذى وهب القائمة
ولم يكن أحد آخر يسمى بمثل اسمه فتاريخ الهبة يرجع
الى عهد أوديب بن لا يوس ••

« ورأيت على القائمة الثالثة كتابة نظمت من العروض
السداسى يقول كاتبها : ان الملك لاودامس وهبها للمشمس
النافذة عند جلوسه على عرشه هبة جميلة معجبة ••

« وفي عهد لاودامس هذا - ابن أتوكليس - أخرج
القدموسيون من بلادهم ولاذوا ببلاد الأنشيليين - على
الشاطئ الغربي من ألبانيا الحديثة * * *

ونحن ندرك قول هيرودوت أن الآيونيين - أي
اليونان - نقلوا الكتابة بغير تصرف حين تعلم أنهم نقلوها
بطريقتها ومادة صحفها ، كما نقلوها برسوم حروفها
وألفاظها . فقد ظلوا يكتبون السطور من اليمين الى الشمال
كما نكتب العربية اليوم ، وبقيت هذه الطريقة متبعة عندهم
في نقوش الآنية المزخرفة الى ما بعد اقتباس الكتابة بعدة
قرون ، ولم تظهر لهم نقوش من الشمال الى اليمين قبل
أيام بسماتيك في القرن السابع قبل الميلاد .

ولاشك أن اليونان غبروا زمنا طويلا وهم يتلقون
ثقافتهم وصناعتهم من القدموسيين بأوطانهم المختلفة من آسيا
الصغرى الى حدود بلاد الألبان العصرية في الجنوب ، فلا بد
أن يكون هذا الزمن موغلا في القدم عدة قرون كي تمتزج
أخباره التاريخية بروايات الأساطير المتداولة على السنة
الجماهير ، فان أساطيرهم تضيف الى أخبار التاريخ التي

تنسب الى قدموس فضل تعليمهم الكتابة وبنائه لمدينة بوطية
أنه كان من أصحاب المعجزات الذين تعينهم الآلهة ، وتملى
عليهم مكائد الحرب والحدیعة • ومنها أن قدموس قتل الثنين
الحارس لبعض الينابيع فى بوطية ، ونثر أسنانه على الأرض
فنبئت منها شرذمة من المردة المسلحين أحاطوا به ليقتلوه ،
فأوحى اليه الربة أثينا أن يلقي اليهم بجوهرة كريمة
بهرتهم فتركوه واقتتلوا عليها حتى أفنى بعضهم بعضا ولم
يبق منهم غير خمسة لم يقدروا عليه لأنهم خرجوا من
المعمعة منهوكين مهزولين • ومن هنا يقال عن النصره التى
تنال بالثمن المرهق والحساره الفادحة ، أنها نصره قدموسيه
أو قدميه ، ويجرى هذا فى التعبيرات المجازيه بين المحدثين
من الأوربيين •

ويقول المعجم الأثرى انهم كانوا يعبدون هرمر رب
الحكمة والمعرفة عندهم باسم قدموس ، • وأنه كان يقال
عنه : انه مخترع الزراعة والحدادة وصناعات الحضارة على
التعميم ، وأن الشعراء الأقدمين لم يكن لهم علم بمقدمه
أكان من الشرق أم من مصر أم من فينيقيه • ولما قيل أخيرا
انه من فينيقيه قرنوا اسمه باختراع حروف الأبجدية التى

يعرف الاغريق جيدا أنهم أخذوها من الفينيقيين (١) •

والثابت بعد هذا كله من الواقع - فضلا عن أخبار التاريخ - أن الحروف اليونانية القديمة كالخروف العربية ، وأنهم كانوا يكتبونها من اليمين الى الشمال كما نكتب بالعربية اليوم ، وأنها بأشكالها وأسمائها ذات معنى فى اللغات السامية ، ولا معنى لها فى لغة من اللغات الأوربية ، وأن انتقالها كان مقرونا بانتقال صناعات الكتابة وأدواتها وما يتصل بها من الصناعات الأخرى ، وأن اليونان تعلموا الملاحة وفنونها ممن سبقوهم : أى من أمم البحر الأبيض الشرقية ، وأن النقوش وأسماء المواقع فى البلاد اليونانية ترجع وصول العرب بحضارتهم الى تلك البلاد فى زمن قديم سابق على الأقل لشيوع أسماء « لاريسا » : أى العريش و « عسكرا » : أى العسكر وفندس Pindus أى الجبل العظيم •

على أن اقتباس اليونان من العرب يظهر لنا من تشابه

(١) صفحة ١٠٦ من معجم الآثار السلفية تأليف سيفرت

Dictionary of Classical Antiquities, by Oskar Seyffert.

الكلمات فى اللغتين ولاسيما الألفاظ التى تدل على أصل
متشعب فى العربية ، أو تدل على نظام المعيشة الغالب على
الأمة وطول العهد به فى موطنه ومستقره •

فالبرج فى اليونانية برجوس πυργος ومادة الباء
والراء ومثيلتهما أصيلة فى الدلالة على الظهور والعلو :
كبرز وبرض وبرع وبرق • ومعنى البروج والتبرج
والأبراج شائع فى المادة العربية •

ولاشك فى سبق العرب الى الفرس والسيف والقناة •

والفرس فى اليونانية Φορὰδα والسيف ἔλκς

والقناة أخذوها وأخذوا منها القانون بمعنى المقياس ،
ولا تخفى علاقة القناة والقصة بالمقاييس فى كل لغة • ومنها
الرول Rule بمعنى القاعدة ، والرولر بمعنى المسطرة
فى اللغة الانجليزية •

ومن الكلمات التى تلحق بالمقاييس كلمة القسطاس

δικαστής وكلمة القالب χαλοπός

ولا تخفى العلاقة بين كلمتى « قلم » و « قصة » وبين

المصدر العربى لكلمة كَلَمَوس Kάλαμος وكلمة كَسْمِبَة
Kάσαμπα اليونانيتين بمعنى قصبة ، وان يكن تاريخ
استعمالها غير معلوم •

وتلحق بكلمات الكتابة الخارطة والخريطة ، والأولى
عربية من خراطة السائل الذى يؤخذ من أصل ورق
البردى ، ومن الخرط وهو قطع الجلد أو الصحف التى
يكتب عليها • • • وتسمى الخارطة والخريطة فى اليونانية
χάρτης ومنها الكرئيس أو القرطاس •

وتلحق بكلمات الملاحة كلمة سير وهى باليونانية
(سيرا) σείρα وكلمة غراء وهى σνρος وهما أشبه
بصناعة السفن وبالصناعة على الأجمال ، وليس أبعد من
الفرض الذى يجعل هذه الكلمات منقولة عن اليونانية الى
العربية ، مع العلم بسبق العرب فى الملاحة والكتابة وقياس
ما ينقل فى السفن ووزنه وتقديره •

ونظير ما تقدم فى الدلالة على اقتباس الونان دائما

من العرب في أمثال هذه الألفاظ التي ترتبط بالمعاملات
وشئون المعيشة - أنهم حولوا أسماء أيام الأسبوع الى
الترتيب العددي أسوة بأسمائها العربية ، وغيروا منها اسم
السبت والأحد بعد ظهور المسيحية ، وهل كان اقتباسهم من
المسيحية الا اطرادا في هذه القاعدة وجريا على هذا
القياس ؟ •

والفلسفة

والفلسفة ليست بالاستثناء من هذه القاعدة العامة في تاريخ الثقافة الشرقية اليونانية ، خلافا لما يظنه القائلون بأن فلسفة اليونان قد نشأت في منبتها نشأة منقطعة عن ثقافة العالم في جملتها •

ان طاليس هو أبو الفلسفة اليونانية كما قال عنه أرسطو الملقب بالمعلم الأول • وقد ذكره في كتاب ما بعد الطبيعة وقال عنه : انه مؤسس الفلسفة ، واستشهد بقوله : ان الماء مصدر جميع الأشياء ، وذكره في كتاب السماء واستشهد بقوله : ان الأرض جسم يطفو على الماء • وذكره في كتاب النفس واستشهد بقوله : ان المغناطيس ذو حياة لأنه يقدر على تحريك الحديد • وذكره في كتاب السياسة ، وروى من أخباره أنه أدخل بعض التحسين على معاصر الزيتون وجمع ثروة حسنة بهذا الاختراع •

وفى الأخبار التى جمعها عنه كتاب « المرشد الى من
قبل سقراط من الفلاسفة » أنه عرف أسباب الكسوف
والخسوف ، وأنه كشف منزلة الدب الأصغر من منازل
الفلك ، وأنه أدخل الفلسفة من مصر الى بلاد اليونان ،
واهتدى الى قواعد تمكنه من قياس مسافة البعد بين
الشاطئ والسفن فى البحر ، وتمكنه من قياس ارتفاع
الهرم بقياس ظله ، كما اهتدى الى بعض النظريات فى
حساب المثلثات والدوائر ، ويقول الكتاب بعد ذلك : ان
المصادر المختلفة تنبئنا بأنه تعلم الهندسة من المصريين وأنه
وخلفاءه كانوا تلاميذ للمصريين والكلدانيين • وكان
ولا ريب مدينا بالكثير مما عرفه فى هذين العلمين اللذين
اشتهر بهما • • • وان كان المفهوم أنه استخدم الأساليب
العلمية فى تنظيم هذه المعرفة (١) •

ومما له معناه الظاهر فى نسبة المعارف التى استخدمها
طاليس الى مصادرها أنه كان معدودا من « حكماء اليونان
السبعة » وأن هؤلاء الحكماء كانوا أشبه « بهيئة مستقلة »

(١) Companion to Pre-Socratic Philosophers, by Kathleen Freeman.

لاتنقص عن هذا العدد ، ويضاف اليها بديل ممن يخرج منها اذا ثبت أنه أقبح نفسه على الهيئة بسلطان الامارة أو الرئاسة •

ولا يخفى أن « نحلة السبعة » فى كل اقتراناتها ترجع الى مصدرها الأول من بلاد ما بين النهرين ، حيث يتكلمون عن السيارات السبع وعن الأيام السبعة وعن السوابيع المتعددة فى أعمار الأكوان ، وقد كان طاليس يعيش فى ليديا من بلاد آسيا الصغرى ، ويتلقى معلوماته من قبلها فى مسائل الفلك ومسائل النظريات الكونية وأصول الخلق والحياة ، وكان تلميذا للمصريين فى العلوم الرياضية كما يقول مؤرخوه •

فاذا قيل ان الفلسفة ليست بالاستثناء فى شئون الثقافة التى نقلها اليونان عن الشرق فهو الواقع الذى تتفق عليه مصادر التاريخ ومراجع الفلسفة ، وان كانت الفلسفة اليونانية قد تطورت كثيرا بعد طاليس ونظرائه من الحكماء ، حتى أصبحت فى عصر أرسطو وتلاميذه الأولين جديرة بالانتساب الى اليونان دون غيرهم من أمم الثقافة والحضارة فى الأزمنة الغابرة •

فلا نكران لفضل الفلسفة اليونانية على الفلسفة القديمة بمدارسها المختلفة ، ولكن الادعاء الذي ينكره كل منصف أن اليونان قد امتازوا بفلسفتهم لأنهم أبناء القارة الأوربية وأصحاب «الذهن» الانساني المتفرد بين أذهان البشر بمزايا البحث الطليق وحب الاستطلاع لمحض العلم والاطلاع •

فاليونان لم ينفردوا بهذه الفلسفة في جميع عصورهم، ولم يزد عصر فلسفتهم الممتازة على ثلاثة قرون ، منها مائة سنة على الأكثر تفرغت فيها فلسفتهم للبحوث الخالصة في حقائق الوجود وأصول الأشياء على قدر المستطاع من تفرغ الفكر الانساني لهذه الأمور •

وسبب ذلك راجع الى ظروف خاصة تتغير فتيبها التغير في نتائجها حيثما كانت وحيثما كان التغير •

نشطت حركة الفلسفة اليونانية في العصر الذي شاعت فيه الكتابة على الورق وتيسرت فيه المواصلات بين بلاد اليونان وما حولها من البلاد الآسيوية والأفريقية •

ولم تنشط مع ذلك الا لأنها قد نشأت فى بلاد لم تحكمها دولة عريقة ، ولم تكن فيها الى جانب الدولة الحاكمة دولة من دول الكهانة التى تتأصل فى البلاد وتتوارث فيها أسرار المعرفة والبحث فى أصول الخلق والحياة ، أو فى المسائل الالهية التى يستأثر بها الكهان ورؤساء الدين • فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تقوم عليها الدول المتمكنة ، وتقوم معها الى جانب الدولة الحاكمة دولة دينية من الكهان ورؤساء الدين يسيطرون على شئون العقيدة ومباحث الفكر فى أسرار الطبيعة وما وراءها من الغيب المجهولة • وعلى هذه السنة قامت كهانات الهند وما بين النهرين ووادى النيل فانفرد الكهان بالمعرفة الغنية ولم يأذنوا لغيرهم - خارج المعبد - فى بحث هذه المعرفة ودارسة « الفلسفة » التى تقوم على تحقيق « الوجود » لذاته وتحقيق صفات الموجودات العليا والموجودات المقدسة التى كانوا ينعنونها باسم الأرباب •

ولم تكن فى اليونان دولة متمكنة ولا كهانة ذات سيطرة على دولتها الصغيرة ، فأتسع أمامهم مجال البحث غير متحرجين فيه ولا محاسنين عليه ، وعمدوا الى العلوم التى

استفادوها من الشرق فقالوا فيها ما يقوله كل باحث منطلق
اللسان يتحدث بما يشاء كما يشاء •

على أنهم ما لبثوا جيلا أو جيلين حتى اصطدموا
بسلطان الدين وسلطان الدولة ، فقتل سقراط وتشرد
أفلاطون وقضى أرسطو بقية حياته في عزلة واهمال ،
وكان عدد الهاربين من فلاسفتهم أكثر من عدد المقيمين
الآمنين •

وكذلك حدث في القارة الأوربية بين صميم الأوربيين
بعد قيام السلطة الدينية بينهم وانفرادها بالتفكير في المسائل
الالهية ، فان القرون الوسطى لم يظهر فيها فيلسوف أوربي
واحد ، ولم يظهر فيها من ظهر بعد ذلك من فلاسفتها غير
تلاميذ الشراح من العرب الأندلسيين •

ونحن لانعلم من آثار الشرقيين الأقدمين أنهم تركوا
« فلسفة » تبحث في أصول الوجود بغير صبغتها الكهنوتية ،
ولكننا لا نستطيع من أجل ذلك أن نجزم بانقطاع تفكيرهم
في هذه البحوث ولا بقصورهم عن ادراك مداها ، لأنهم
لم يتركوا لنا كذلك كتباً مفصلة عن علوم الفلك والرياضة

والكيميااء اللى لاشك فى اشتغالهم بها وتطبيقهم لها فى بناء
الهياكل ونقش الجدران وتحنيط الموتى ورصد الكواكب
وسياسة الأنهار ، وكل مانستطيع أن نجزم به أنهم
لا يعلنون ما عرفوه ولا يدل كتمانهم له على جهلهم اياه •

ولسنا نريد باثبات فضل الشرق أن نبخس فضل
اليونان فى ترقية الفلسفة ، ولكننا نقرر الواقع حين نقول :
ان الذين يتخذون الفلسفة اليونانية ذريعة الى اتهام الشرق
بالقصور ينحرفون عن سنة الانصاف ويتورطون فى ادعاء
لا دليل عليه •

تلاميذ أباديون

ان الموقع الجغرافى أنفع لنا فى المساعدة على تمحيص الروايات التاريخية التى لا تسلم - مع طول الزمن - من الخرافة ومن الاضافة ، أو من الخلط وسوء النقل والحكاية •
فان للموقع الجغرافى مقتضياته التى نفهم منها ما يجوز ، وما يمتنع ، وما يحتاج الى السند أو يستغنى عنه أو يكتفى منه باليسير •

وموقع بلاد اليونان ينبئنا بالعلاقة التى توجد بينه وبين الحضارات الشرقية ، أو توجد بينه وبين حركات الأمم فى أدوار هجرتها - واستقرارها منذ فجر التاريخ •

فلم تنقطع علاقتها بالشرق منذ خمسة آلاف سنة على الأقل ، ولم تكن علاقتها بالشرق فى هذه العصور الا علاقة التلمذة المتابعة على الثقافات المتابعة فيه ، لاسيما الثقافة الروحية وثقافة النظرة الكونية العامة ، وتأتى بعدها ثقافة

المعيشة المستمدة من الصناعة وعروض التجارة •

ونحن اليوم نسمع كثيراً عن المناظرة بين الجنس
الآرى والجنس السامى ، وعن مزايا كل من الجنسين فى
التفكير ومبادئ الأخلاق ، وعن اقتدار كل منهما على انشاء
الثقافة وحفظ الحضارة وتقويم القيم الاجتماعية والنفسية •
ويدور هذا البحث كله أحياناً على مزايا اليونان فى طلب
المعرفة لأنهم آريون وأوربيون ، مكانهم من ثقافة أوربة
الحديثة مكان الرواد الأسبقين ، والباكورة التى تدل على
الشجرة وعلى ما تحمله من ثمارها فى كل أوان •

فاذا ابتدأنا بالمسألة كلها من البداءة فالآرية نفسها
صفة لم يكسبها اليونان من غير الشرق ، ولم تظهر فيهم
مزية من مزاياها بغير العلاقة التى اتصلت بينهم وبينه بعد
انفصالهم عنه فى زمان الهجرة الآرية •

فقد يكون اليونان آريين قدموا مع السلالة الكبرى
التي انتقلت من أواسط آسيا الى أوربة الشرقية والوسطى ،
وقد يكونون سكاناً أصلاء فى أوطانهم غلب عليهم أولئك
الآريون المهاجرون وصبغوهم بصبغتهم فلم تبق لهم لغة غير

اللغة الآرية ، ولا عقيدة غير عقيدة الآريين الأولى في الدين
والاله والخلق •

فهم على الحالين منتسبون الى الشرق في ثقافتهم ،
ونسبتهم هذه هي سر امتيازهم على اخوانهم الآريين الذي
ذهبوا في الهجرة الى أواسط أوربة وما وراءها •

ان الآريين الذين استقروا في القارة الأوربية وراء
بلاد اليونان الى أقصاها غرباً وشمالاً قد عاشوا مئات السنين
على همجيتهم الأولى فلم تنفعهم مزاياهم الآرية في ابتداع
ثقافة خاصة تنسب اليهم ولا في اقتباس ثقافة من الشرق
بعد ارتقائه وامتداد عمرانه لأنهم فارقوه وانقطعت صلات
العلم والتجارة بينهم وبينه •

فليست « الآرية » اذن منبع الثقافة اليونانية وسر
الامتياز والتفوق الذي يخصصهم به خلفاؤهم من الأوربيين
المحدثين ، ولكنها الصلة بالشرق والاستفادة منه والتلمذة
عليه ، ميزهم بها موقعهم الجغرافي فرجحهم على سكان
المواقع النائية من اخوانهم الآريين •

وفي المرحلة الأولى قدم آباؤهم الأولون من القارة
الآسيوية بعقائدهم الروحية كما أخذوها من منبعها ، ويكفى
منها ذكر اسم الاله عندهم « ذيوس » وهو من الهندية
القديمة ، وذكر أبى الأرباب عندهم وهو اسم مركب من
كلمتين بتلك اللغة وهما : « داوس باتر » : أى أبى
الأرباب (جوبيتر) •• وما بقى من تفصيلات ديانتهم
المنسية ومعبوداتهم الأخرى فهو مركب على اعتقادهم برئيس
جميع المعبودات وأبى الأرباب •

والمرحلة التالية لمرحلة الهجرة القديمة هي مرحلة
الكتابة والصناعة ، سواء جاءتهم من هجرة قدموس وزمرته
الفينيقية ، أو من هجرة تماثلها فى مصدرها ، فانها من
ثمرات الموقع الجغرافى الذى قربهم من أسباب التلمذة
على الشرق المجاور لهم والاستفادة من حركات شعوبه •

وتأتى المرحلة الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح ، فلبس
دخول اليونان فى المسيحية الا مرحلة فى السيل المطروف
من مراحل التلمذة على الثقافة الشرقية : أدبية أو صناعية
أو روحية •

ولم تكن مرحلة المسيحية خاتمة المراحل في هذه
التلمذة العريقة فان الفتوح العثمانية أوشكت أن تفتح في
بلاد اليونان وما جاورها عهد ديانة جديدة ، لولا اشتداد
نسيوخ الاسلام في فتاواهم على الدين • الصريحة التي
حرموا بها على السلاطين اكراه أهل الذمة

وهذا هو حكم الموقع الجغرافي الى جانب حكم
التاريخ وحكم الآثار الباقية :

حكم الموقع الجغرافي أن اليونان تلاميذ « طبيعون »
لكل ثقافة شرقية ، كلما كانت للشرق ثقافة غالبة • فاذا
وقف هذا المورد عند حد من الحدود أو وراء حاجز من
الحواجز ، فذلك هو الحاجز الذي يصد السيل عن مجراه
ويتحول به الى ينبوع سواء •

ثم الثقافة العبرية

ان سبق العرب للعبريين فى ثقافتهم الدينية أوضح من سبقهم لليونان فى ثقافة المعرفة وصناعات الحضارة •
ووقائعه وقرائنه أقرب سندا من الوقائع والقرائن التى ألمنا بها فى الصفحات السابقة ، لأن السند القريب هنا مستمد من أسفار التوراة ومن أحوال المعيشة التى لا محل للخلاف عليها •

وقد أوجزنا القول فيما تقدم على العلاقات القديمة بين ثقافة العرب وثقافة اليونان بالقدر الذى تتسع له هذه الصفحات القليلة •

وسنكمل القول فيما يلى على بيان العلاقات القديمة بين ثقافة العرب وثقافة العبريين فى الناحية الدينية ، ونبدأ هذا البيان بما لا بد منه من تحقيق أصل العبريين وأطوار العلاقة بينهم وبين الأمة العربية الى ما بعد ظهور الأنبياء

والرسل فى بنى اسرائيل • فمن هم العبريون ؟ وما هو
أوثق الأقوال عن نشأتهم الأولى قبل أيام ابراهيم عليه
السلام ؟

ان أوثق الأقوال عن نشأة العبريين منذ أربعين قرنا
على وجه التقريب أنهم قبيلة بدوية صغيرة عاشت زمنا فى
جنوب بلاد العرب الى الشرق ، وبقيت فيه على حالة بين
الاقامة والترحل الى مسافات قريبة حتى انتقلت - مع
ملازمتها الشاطيء - الى جنوب وادى النهرين •

ويستدل على تاريخ هذه القبيلة من تاريخ الدابة التى
كانت تعتمد عليها فى الرحلة وحمل الأثقال ، وهى
الحمار *Asinus Asini* فهذا الحيوان كان يوجد فى حالة
الوحشية على مقربة من السهول الرملية فى جزيرة العرب ،
ويصل أحيانا فى قطعانه المجفلة من السباع الى أرض
حوران •

ويظهر أن العبريين استخدموا هذا الحيوان وهو
قريب من حالته الوحشية ، لأنه كان فى تلك الحالة يميل
بلونه الى الاحمرار على اقتراب من ألوان الرمال التى

يعيش فيها • ومن هنا اسم « الحمار » واسم اليعمور الذي يطلق على الحمار الوحشى فى اللغة العربية •

ويظهر أيضا أنه بقى عندهم زمنا طويلا على هذا اللون حتى تغير لونه بعض الشيء وتولدت منه الحمر البيضاء ، بعد طول التدجين والعناية « المدنية » : أى بعد انتقال العبريين من البادية الى جوار المدن ، وترددهم بين معيشة البداوة ومعاهد الحضارة ، فأصبحت الحمر البيضاء مطية لذوى الرئاسة والثروة من القوم • وفى ذلك يقول سفر القضاة من اصحابه الخامس مخاطبا أولئك الرؤساء : « قلبى نحو قضاة اسرائيل المنتدبين فى الشعب : « باركوا الرب أيها الراكبون الأتّن الصحر الجالسون على الطنافس » : أى اناث الحمير المبيضة اللون •

واستخدام الحمار يدل على كثير من أحوال العبريين الى جوار القبائل التى تستخدم الجمال للسفر الى المسافات البعيدة ، ونقل الأحمال الثقيلة ، ونزول المراعى المنيعه التى لا تستباح لغير ذوى القوة والكثرة من قبائل الجزيرة • • فأنما يستخدم الحمار للمسافات القصيرة والأحمال الخفيفة

بالقياس الى أحمال الجمال ، ويسير الحمار في غير المفاوز
الرملية التي تسلكها الابل ، ولا يتعد وقتاً طويلاً عن
موارد الماء الميسرة بغير عناء مجهود وبغير حاجة الى الحماية
القوية أو الى كثرة العدد ووفرة السلاح •

فالعبريون في نشأتهم قوم ضعاف قليلون في العدد ،
مضطرون الى الاكتفاء بالمعيشة التي يتركها سادة الصحراء
زهداً فيها واستغناء عنها ، ونكاد نعلم من ذلك مواقع نشأتهم
الأولى قبل وفودهم الى العراق وبعد مقامهم فيه الى أيام
الخليل ابراهيم •

فهذا الموقع لا بد أن يكون قريباً الى الشاطئ ، قريباً
الى الحاضرة ، يقيم فيه أناس لم يتفرغوا للبداوة في جوف
الصحراء ولم يتفرغوا للإقامة في الحواضر العامرة ، ولكنهم
عاشوا بين البادية والحاضرة يؤدون الأعمال التي تتطلبها
الحاضرة من البادية وتتطلبها البادية من الحاضرة ، وهي
في الغالب أعمال وساطة وممسرة هادئة لا تضطربهم الى
الاقتحام والغلبة في معاملة أهل المدينة ولا في معاملة أهل
الصحراء ، ولا تضطربهم الى الحوزة القوية لتحصيل

القوت لهم وللدواب التي يستخدمونها • فانهم يأخذون ما يحتاجون اليه من المدن جزاء أعمالهم في الوساطة بينها وبين البادية ، ولا يحتاجون الى كثرة عدد ولا وفرة سلاح لاقتحام مراعى الصحراء البعيدة ، اذ كانت دوابهم تقنع بالقليل من العلف والمرعى وبالقريب من موارد الشرب والسقاية ، وهم في وساطتهم المتبادلة يعولون على الرضى والطلب ولا يعولون على القهر والاعتصاب •

وفي هذه المعيشة البدوية الحضرية يكمن كل سر من أسرار التاريخ العبرى من فجر التاريخ الى العصر الحاضر ، واليها يرجع تحليل المشكلات والأزمات التي تعرض العبريون أو عرضوا لها أنفسهم ولا يزالون معرضين لها حتى هذه الأيام •

فهم قبيلة لم تتطور ، وقد ظلت بين البادية والحاضرة قبيلة لم تستوف أطوار البادية ولم تتحول الى أطوار الحضارة شعباً « مدنياً » يتمشى مع الحياة المدنية على سنة جميع الشعوب ، ولازمتها عادة المعيشة على السمسرة والوساطة فلم تتقدم الى آخر الشوط في تثير أعمال البدو ولا في

تتميز أعمال الحضرة ، فهي في حالة العزلة الاجتماعية
وما يلزمها عند البدء من عزلة « العصبية » بالدم والسيالة •
ومشكلة العبريين قديماً وحديثاً هي هذه المشكلة :
هي مشكلة « التحجر » على حالة القبيلة وحالة « العصبية »
بالدم والسيالة • وعقيدتهم في جوهرها هي عقيدة عصبية
منعزلة ، تؤمن بالله تعبده لأنه الهما ، وهو الإله الذي يرفعها
لأنها شعبه الذي يحابه بين الشعوب لغير سبب ولغير فضيلة
فيه غير أنه شعبه المختار لديه •

وهذه حالة من العزلة « المتعصبة » لا بد أن تسوق
القوم إلى اصطدام عنيف بينهم وبين جيرانهم من جانب
البادية ومن جانب الحضرة ، ولا بد أن يقع فيها ذلك
الشعور النافر بين صاحب المال وبين الوسيط والسمسار ،
كلما تحركت المطامع وتعرضت المنافع ، ونشبت المنازعات
في البيئة ، ولو كان نشوبها لسبب غير السمسرة
والاستغلال •

ولا يدري على التحقيق هل سمي العبريون بهذا
الاسم لأنهم يتسبون إلى عابر بن سام ، أو لأنهم عبروا

نهر الفرات بعد قدومهم الى وادى النهرين • ففى سمر
يشوع يقول يشوع للشعب كله : « هكذا قال الرب اله
اسرائيل • آباؤكم سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر •
تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلهة أخرى ،
فأخذت ابراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به فى كل
أرض كنعان • •

الا أنهم - لضعفهم - كانوا يلوذون فى كل موطن
سكنوه بمن هو أقوى منهم من القبائل التى تلتقى بهم فى
أصولهم ويحتمون بمصاهرتها من أعدائهم ، ففى سفر
التكوين أنهم انتسبوا الى الأصل الآرامى حين أرسل
ابراهيم عليه السلام رسوله لخطبة رفقة بنت بتوئيل
الآرامى • فقال له : « الى أرض وعشيرتى تذهب وتأخذ
زوجة لابنى • • • »

ولما نزلوا أرض كنعان جعلوا لغتهم لغة كنعانية •
وقال أشعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر انه « فى
ذلك اليوم يكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة
كنعان • • »

ولم يزالوا فى هجرتهم من موطن بعد موطن بين
العراق و حوران و كنعان يعيشون الى جوار القبائل
ولا يتغلبون على واحدة منها فى وقعة فاصلة حتى لجأوا الى
مصر وعادوا منها بعد عدة قرون الى الأرض التى سموها
بأرض الميعاد ، ولم يتفقوا على حدودها حتى ملكوا أسباب
القوة التى أطمعتهم فى الغلبة عليها •

والعرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤماً
« تقليدياً » بالأيام التى قضوها فى مصر ويحسبوننها بلية
اليسايا ، ومحنة المحن فى تاريخهم كله من عهد الخليل الى
عهد النازية الهتلرية فى القرن العشرين • وقد مرت بهم
محنة السبى الى وادى النهرين ولكنهم لا يتشاءمون بها كما
تشاءموا بالمقام فى مصر ، ولا يجعلون الخروج من بابل
عيداً باقياً متجدداً كعيد الخروج من أرض وادى النيل •

أما الواقع المعروف بنتائجه الكثيرة فهو على نقيض
ما قدروه وأوجبوه على أنفسهم من تقاليد « الحداد » وتقاليد
الأعياد •

فانهم لم يستفيدوا قط من هجرة فى تاريخهم كله

كما استفادوا من هذه الهجرة المصرية ، لأنهم نعموا بالعيش
الرغيد فى جوار النيل ، وتعلموا من آداب الحياة وشرائط
الصحة ما زاد فى عددهم ، وزاد فى خبرتهم بتدبير أمورهم
والدفاع عن أنفسهم • فأصبحوا يعدون بمئات الألوف ،
ويحسنون حمل السلاح وتنظيم الزرع والحصاد ،
ويصلحون لنزال القبائل البادية التى أعيامهم أمرها قبل
خمسة قرون وتركوا لها الأرض اعتصاماً بمصر وهم
بضع مئات أو بضع عشرات •

وليس الفضل فى هذه الزيادة وهذا التقدم لطول
الزمن بين دخولهم الى مصر وخروجهم منها ، فان القبائل
التي تركوها فى البادية بقيت كما كانت قبل خمسة قرون،
ولم تبلغ فى زيادتها ولا فى تقدمها بعض ما بلغوه وادعين
قائمين بجوار النيل •

ولولا هذه الزيادة فى عددهم وفى خبرتهم لما
استطاعوا أن يقاتلوا قبائل البادية التى كانوا يهابونها
ويهربون منها ، ولا استطاعوا أن يهزموها ويطردوها من
مواقعها اذا اجتروا على قتالها ، ولا تأتى لهم من دواعى

الاستقرار في أرض كنعان ما يعينهم على إقامة الملك وبناء
الهياكل من الحجارة بدلاً من العرائش والخيام ، ومهما
يكن من بلاء أصابهم في مصر فهو بلاء استحقوه واستحقوا
أضعافه في بلاد العالم القديم شرقية وغربية •

ثم لازمتهم آفتهم الخالدة بعد إقامة المملكة وتعاقب
العروش زهاء أربعة قرون ، فلم يفارقوا نظام القبيلة بعد
محاكاتهم لجيرانهم في نظام الدولة ، ولبثوا في دولتهم كما
لبثوا في هجرتهم قبيلة معزولة عن الأمم ، بل سبطا معزولا
عن سبط في داخل القبيلة ، وظلت لهم شريعة « العصبية
القبيلية » دستوراً يصلح لهم وحدهم في تقديرهم ، ولكنه
لا يصلح لتنظيم الدولة التي تجمعهم بغيرهم في كل
تقدير •

فلم يزالوا من قيام المملكة الى ما بعد ميلاد السيد
المسيح يحرمون بينهم ما يحلونه بينهم وبين غيرهم ،
ويعملون بما جاء في سفر التثنية حيث يقال : « للأجنبي
تقرض الربا ولكن لأخيك لا تقرض رباً لكى يباركك
الرب الهك » • • فهو ربه والهه وليس برب ولا اله
للآخرين •

وظلوا يحصرون العصرية فى أضيق حدودها بين
الأسباط فى القبيلة الواحدة ويتشددون فى حصر كل
سبط بميراثه الى أعقاب الأعقاب •

ففى الأصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد
أنه « لا يتحول نصيب اسرائيل من سبط الى سبط • بل
يلزم بنو اسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه ، وكل بنت
ورثت نصيباً من أسباط بنى اسرائيل تكون امرأة لواحد
من عشيرة سبط أبيها لكى يرث بنو اسرائيل كل سبط
نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من سبط الى سبط آخر ،
بل يلزم كل واحد نصيبه كما أمر الرب موسى • »

ولا ضرورة للبحث الطويل فى نسب الفشل الذى
يلحق بدولة من الدول تقوم على مثل هذا النظام ، وتقوم
من ورائه على مثل هذا الشعور ، فانه نظام يقف عند حدود
القبيلة ويقصر عن التقدم وراء ذلك خطوة فى طريق
الحياة القومية ، فضلاً عن الحياة العالمية •

ومن فضول القول أن يتحدث نقاد التاريخ والمعقبون
على أطوار الاجتماع عن « رسالة عالمية » يستفيدها العالم

من هذه « العصبية القبلية » بعد تطور الأمم والشعوب
وتطور العلاقات العالمية وتطور العقائد والآداب • فان
« الفكرة العالمية » لا تتولد في طور من أطوارها من مثل
هذه الدعوة الدينية أو العنصرية ، بل يكون تقويض
أساس هذه الدعوة شرطاً لازماً لمجرد تصحيح النية
وتوجيه الرغبة الى الفكرة الانسانية العامة والثقافة التي
تستفاد لجميع الشعوب ولا تكون وقفا على شعب واحد
دون سواه •

العبرية والعالمية

نعم انه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة دينية محصورة في هذا الحيز المحدود انها رسالة عالمية ، أو أنها يمكن أن تسفر قبل زوالها عن رسالة عالمية •

لكن الأمر يتجاوز فضول القول الى فقدان الحياء حين يقال : ان العبرية هي التي نهضت بأمانة الرسالة العالمية في تاريخ بنى الانسان ، وأن تنعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق في وادى النيل وفي وادى النهرين وفي شبه الجزيرة العربية • فيقال : ان تلك الحضارات جميعا لم تحفل بمبادئ الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لا تنضب للواجب والحق كما غضب لهما رب العبريين : رب الصواعق والجنود •

ولا موجب - فيما نرى - لتفصيل الكلام على آداب الحضارات قبل ظهور العبريين وقبل شيوع تلك الحضارات

بين الشعوب والأقوام الذين تقدموا وراء آداب العصبية
المحدودة أشواطاً لا يتسع لها هذا المجال • فربما كان
استقصاء المدى المعروف الذي بلغته الدعوة العبرية من
أيام الخليل إلى أيام السيد المسيح تصحيحاً كافياً لتلك
الدعوى التي يدعيها المبشرون بما يسمونه « الرسالة
العالمية » من قبل العبريين •

إن طاعة الإله في عرف العبريين ليست مسألة فضيلة
وأخلاق تحمد من كل إنسان فاضل وكل آدمي ذي خلق
كريم ، بل هي مسألة علاقة بين رب « عبري » يختص
نفسه بشعب يختاره ويغار عليه ، وبين شعب يدين لذلك
الإله بين آلهة الأمم لأنه يخافه ويشعر بقوته وانتقامه ،
ويرى أنه أقدر على الانتقام من جميع الأرباب •

ويقول هذا الإله كما جاء في سفر التثنية : « أنا
عارف نمردكم ورقابكم الصلبة » •
ويقول كما جاء في سفر الخروج : « رأيت هذا
الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة » •

ويقول أنبيائهم تارة : انه شعب ثقيل الاثم ، وتارة :
انه شعب لا يفهم • ويعيد كل نبي ما سبقه اليه الأنبياء من
وصفه بالضلالة والنفاق والقسوة وقلة الوفاء • • ولكن
هذا الشعب يعلم - مع كل ذلك - أن الله يختاره لأنه شعبه
وعصيته • • وأنه كما جاء في سفر التثنية « ليس لأجل
بركة يعطيك الرب الهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها
لأنك شعب صلب الرقبة » •

أما هذا الشعب فانه يدين لهذا الاله ويختاره من بين
الأرباب لأنه : « الهكم وهو اله الآلهة ورب الأرباب ،
الاله العظيم الجبار المهيبة » •

ويناديه الاله فيقول له كما جاء في سفر الخروج :
« لا تسجد لهن ولا تعبدن لأنى أنا الرب الالهك اله غيور
أفقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فى الجيل الثالث والرابع
من مبغضى • • • »

نعم ؛ كما تسرى شريعة الثأر فى الجاهلية من الآباء
الى الأبناء ، ومن الاخوة الى الاخوة ، ومن الجار الى الجار •
ويتكرر النذير من الاله الغضوب غير مرة « لأن

الرب الالهك هو نار آكلة • اله غيور • • فلا تسيروا
وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم لأن الرب
الاهكم اله غيور • • ويجري هذا النذير من الأسفار
المنسوبة الى موسى عليه السلام الى الأسفار التي كتبها
آخر الأنبياء من بنى اسرائيل •

ولم تنفرج حلقات هذه العصية بعد توالى الضربات
على القوم من جراء تعنتهم بالأثرة وانكار الحقوق الانسانية
على الأمم ، أو على « الجويم » كما يسمونها بمعنى الغرباء
أو الدخلاء ، بل كانت هذه العصية تنحصر من دائرة الى
دائرة أضيق منها وأشد في التمييز والاستثارة من سوابقها •
فكانت صفوتهم المختارة أبناء ابراهيم الى أبناء أبنائه وحفدته
فاذا هي تنحصر بعد ذلك في أبناء اسحق بنى اسرائيل
ويدعو القوم أنفسهم من أجل ذلك بأبناء اسرائيل ، ثم
انحصرت صفوتهم المختارة في بنى هرون آل موسى
الأقربين عليه السلام ، ثم انحصرت في أبناء داود عليه
السلام بعد قيام المملكة • وقيل من أجل ذلك ان المسيح
المنتظر لا يكون من غير ذريته وورثة عرشه ، وكانت
الوعود السماوية المزعومة تتنقل على هذا المثال جيلا بعد

جيل تبعاً للتنقل في مراكز الرئاسة والقدرة على مرصاة
كهان الهيكل ودعاة النبوة •

وكان بعض أنبيائهم من حين الى حين يفتنون لوبال
هذه العصبية ويعترفون للأمم بشيء من الحق في النعمة
الالهية ، انذاراً لقومهم بعاقبة التماذى فى مساوئهم ونزواتهم
واتكالهم على اختيار الاله لهم دون سواهم بغير فضيلة فيهم
ولا اجتهاد من جانبهم ، ولكنها فلتات تعرض لأولئك الأنبياء
كلما أزعجهم مصير قومهم وصدمتهم فوارق المقابلة بينهم
وبين الأمم التى تفضلهم وترجع عليهم ، ثم تذهب الصيحة
بغير صدى وتعقبها نوبة من نوبات العصبية أشد وأعنف
من نوباتها الغابرة ، وانتهت رسالات أنبيائهم وقلتها الدعوة
المسيحية وهم على أشد ما كانوا تعصباً للدم والسلالة
وانكاراً للحقوق الانسانية على كل من عداهم من «الجويم»
المنبوذين فى اعتقادهم •

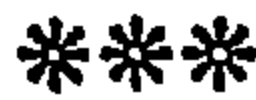
وقد استهل السيد المسيح رسالته بتوجيه الدعوة الى
« خراف اسرائيل الضالة » وايتار « البنين » بالخبز على
الغرباء ، فأعرضوا عنه ورفضوه ، وكادوا له المكاييد

واتهموه ، فاتجه آخر الأمر بالدعوة العامة الى المستمعين اليها من سائر الأمم ، وضرب المثل بصاحب الدار الذى دعا الأقرباء وأبناء الأسرة الى وليمة عرسه فتعللوا له بالمعاذير وقاطعوه فى داره ، فأرسل غلمانه يدعون الى الموائد المهجورة كل عابر سبيل .

وظلوا الى عهد الرسولين بطرس وبولس ينكرون على العبرى أن يتناول الطعام مع غير العبريين ويخدمون غيظاً اذا قيل لهم ان دعوة الهداية تتجه الى الأمم كما تتجه الى بنى اسرائيل ، فجاء فى الاصحاح الحادى عشر من أعمال الرسل أنهم خاصموا بطرس يوم صعد الى اورشليم لأنه دخل بيوتاً لغير المختونين وأكل مع أهلها .

وجاء فى الاصحاح الثانى والعشرين من أعمال الرسل أن بولس الرسول كان يصلى فى الهيكل فقال لمن فيه ان الله أمره أن يذهب الى الأمم لأنه سيرسله الى الأمم بعيداً . . . فسمعوا له حتى هذه الكلمة ثم رفعوا أصواتهم قائلين : خذ مثل هذا من الأرض لأنه كان لا يجوز أن يعيش ، واذا كانوا يصرخون ويترحون ثيابهم ويرمون

غباراً الى الجو أمر الأمير أن يذهب به الى المعسكر ، وأن
يضرب ليعلم لأي سبب كانوا يصيحون به هذا الصياح
ويشقون الثياب ويثيرون الغبار سخطا عليه •



والثقافة الدينية التي من هذا القبيل ليس من شأنها
أن توحى الى أصحابها برسالة عالمية ، وانما شأنها عندهم
كشأن حقوق الميراث في أقرباء الدم والعصية ، لا ترى
أحداً من أصحابها يدعو الناس الى مقاسمته فيها ، بل كل
همه اذا استطاع أن يحتجزها لنفسه ويقصى الناس عنها ،
وهذه شيمة نعهدا في سلالة العبريين الى وقتنا هذا فلا
نرى أحداً منهم يعنيه تبشير الناس بمذهبه وهداية
« الأجنيين » الى ملته ، كما يعنيه أن يتألب ويتعصب مع
أبناء عصبته على تباعه الديار •

واذا تركنا جانب الثقافة الدينية والتفتنا الى جانب
الثقافات الأدبية والفنية أو الثقافات الفلسفية والأخلاقية
لم نجد عند القوم منذ كانوا نصيباً من هذه الثقافات يفيدون
به العالم باختيارهم أو يفيدو العالم على الرغم منهم •

فهم فى أدوار حياتهم الثلاثة - دور البداوة ودور
المملكة ودور الشتات فى أنحاء البلاد - لم يصدروا من
عندهم ثمرة نافعة من ثمرات الآداب والفنون أو ثمرات
العلم والفلسفة ، فلم يخرجوا للعالم من أيام التحليل إلى
أيام المسيح عالماً ولا أديباً ولا فيلسوفاً ولا رحالة مشغلاً
باستطلاع التواريخ أو بحاثة مشغلاً بدراسة الأحياء
والنباتات ومسائل التاريخ الطبيعى كما عرفت من قبل وكما
عرفت اليوم ، وكل محصولهم من الكتب المقروءة فانما هو
تلك المواعظ والترانيم التى وقفوها على أنفسهم ، ولم ينبغ
منهم مشغل بالحكمة والدراسة العلمية قبل اتصالهم بأمم
الجسارة واضطرارهم إلى المعيشة بين تلك الأمم فى
المشرق والمغرب •

ولما قامت لهم دولة لم تنهض لهم مع الدولة ثقافة
أدبية •• ثم ذهبت الدولة ولم تعقب بعدها أثراً من آثار
الفكر أو الوجدان أو الذوق والخيال كذلك الآثار التى
حفظها التاريخ لكل دولة من الدول القديمة والحديثة •

أما فى دور الشتات بعد دور البداوة ودور الدولة

فلم يكن لهم مجتمع واحد تنسب اليه ثقافته ولا تنسب الى غيره ، ولكنهم ظلوا في دور الشتات عالة على ثقافات الأمم كلما نبغ منهم نابغ بين أبنائها ، فليست لهم ثقافة مستقلة عن ثقافات العرب والمصريين في العصر القديم ، ولا عن ثقافات الألمان والفرنسيين والانجليز والأمريكيين وسائر الأمم المثقفة في العصر الحديث •

واذا أحصينا نوابغهم ونوابغ الأمم الأخرى وجب أن يكونوا أضعاف ذلك عددا وكفاية كما يكون المستفيدون من عشرين أو ثلاثين ثقافة متنوعة بالقياس الى المستفيدين من ثقافة واحدة في مكان واحد • ولكنهم على خلاف ذلك أقل مما ينبغي أن يكونوا بهذه النسبة ونسبة أخرى غير النسبة العددية ، وهي أنهم يتعاونون بالتضامن - بل بالتعصب - في جميع البلدان ، ويبذلون جهودهم للتتويه بنوابغهم والاعلان عنهم واهمال من عداهم من أقرانهم ونظرائهم ، ولا يخفى ما يعمل به « التضامن » في اظهار الحفى وتكبير الصغير وتفخيم الضئيل ، فان عشرة متضامنين متفاهمين على التعاون يملكون من أساليب الشهرة والتتويه مالا يملكه ألف متفرقون •

ولنا أن نقول بالتعبير الشائع في عصرنا ان هؤلاء
العبريين منذ بداوتهم الى هذا القرن العشرين قد كانوا
مستفدين ولم يكونوا قط منتجين ، وان محصولهم في
الثقافة العالمية محصول المستغل والوسيط ، وليس بمحصول
المالك العامل الذي يعطى وينتج ما يعطيه •

الدين

فيما عدا احتكار النعمة الالهية وعزلة العصبية في أضيق حدودها - لم يبدع العبريون شيئاً في ثقافة الدين وأخذوا كل ما أخذوه من حولهم « مستنفدين » غير متصرفين في عقيدة من عقائده الكبرى ، الا ما تصرفوا فيه بالخرافة والأحجية والطمس والشعوذة والسحر على سذاجته الأولى بين القبائل البادية •

وكان أكثر ما أخذوه منقولا عن قبائل العربية الكبرى بين اليمن في الجنوب وقبائل الآراميين والكنعانيين في الشمال •

فلم يعرفوا كلمة « النبي » قبل اتصالهم بكنعان في الزمن الذي ظهرت فيه النبوءات العربية ، مما ذكره القرآن الكريم ومما ذكروه هم عرضا في أسفار العهد القديم •

وعرف العبريون نبوءات السحر والكهانة والتنجيم

كما عرفتھا الشعوب البدائية « وابتكروا منها ما ابتكرت على
سنة الشعوب كافة ، واقتبسوا منها ما اقتبست بعد اتصالهم
بجيرانها في المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة ،
ولكنهم على خلاف الشائع بين المقلدين من كتاب الغربيين
قد تعلموا النبوة الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ،
ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤديها قبل
وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في
أرض (مدين) •• فكانوا يسمون النبي بالرائي أو الناظر
أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبي الا بعد معرفتهم
بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة ، وهم ملكي
صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون معلم
موسى الكليم ، ويرجع بنضهم أنه الخضر عليه السلام
للمشابهة بين لفظ يثرون وخترون وخضر في مخارج
الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما
السلام في تفسير القرآن الكريم •

ومن علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا الى اقتباس
العبريين كلمة النبوة من العرب الأستاذ هولشر Holscher

والأستاذ شميدت Schmidt اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت في اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين ، إلا أن الأمر غنى عن الحُبط فيه بالظنون مع المستشرقين ، من يفقه منهم اللغة العربية ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات ، فان وفرة الكلمات التي لا تلبس بمعنى النبوة في اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعبافة والزجر والرؤية ، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرأي والنبى . وتاريخ النبوات العربية التي وردت في التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبى بدلا من كلمة الرأي والناظر . وتلمذة موسى لنبي مدين مذكورة في التوراة قبل سائر النبوات الاسرائيلية ، وان موسى الكليم ولا ريب لهو رائد النبوة الكبرى بين بنى اسرائيل .

« والمطلع على الكتب المأثورة بين بنى اسرائيل يتبين منها أنهم آمنوا بهذه النبوات جميعا ، وأنهم بعد ارتقايتهم الى الايمان بالنبوة الالهية مازلوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصدق النبى فى دعواه اُصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع كبار أنبيائهم ورسولهم عن

مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشستغال بالتتجيم
ففى أخبار صموئيل أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على
مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها ••
(خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الأثن ••
فقال شاول للغلام : فماذا تقدم للرجل ؟ لأن الخبز قد نفذ
من أوعيتنا وليس من هدية تقدمها لرجل الله • ماذا
معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بى ربح شاقل
فضة) ويؤخذ من النبوءات التى نسبوها الى النبى يعقوب
جد بنى اسرائيل أنهم كانوا يعولون عليه فى صناعة التتجيم •
فان النبوءات المقرونة بأسماء أبناء يعقوب تشير الى أبراج
السماء وما ينسب اليها من طوالع ومن أمثلتها عن شمعون
ولاوى أنهما أخوان موقوفهما آلات ظلم فى مجلسهما
لا تدخل نفسى ، لأنهما فى غضبهما قتلأ انسانا وفى رضائهما
عرقبا ثورا •• وهذه اشارة الى برج التوأمين • وهو برج
اله الحرب زجال عند البابليين • ويصورون أحد التوأمين
وفى يده خنجر ويصورون أخاه وفى يده منجل • وتشير
عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان • ومن
الأمثلة فى هذه النبوءات المنسوبة الى يعقوب مثل يهوذا

(جرو أسد جثا وربض كأسد وليؤة ، لا يزول غضب من
يهودا ومشترع من بين رجله حتى يأتي شيلون وله
يكون خضوع شعوب •• وهذه اشارة الى برج الأسد ،
وهو عند البابليين برجان يبدو أمام أحدهما برج يشير الى
علامة الملك الذي تخضع له الملوك (١)) الى آخر ما شرحه
الأستاذ أريك بروز Burrows في كتابه عن تنجيّات
يعقوب Oracles of Jacob

وقد عبرت هذه الأطوار في فهم النبوة شوطاً طويلاً
في حياة القبائل العبرية ، وتعلمذوا في كل مرحلة منها
لأستاذ من هداة العرب نساكاً ورسلاً مبعوثين بالرسالة
أو أنبياء غير مبعوثين بها ، كما جاء في كتب التوراة وكما
جاء في القرآن الكريم مما لم تذكره كتب الاسرائيليين ،
وكله من شواهد التاريخ المعلوم عن سبق العرب الى فهم
النبوة وارتقائهم في الاستعداد لدرجاتها المنزهة عن شوائب
الوثنية ، فضلاً عما يفوتنا العلم به حتى اليوم من شواهد
التاريخ المجهول •

(١) من كتاب حقائق الاسلام واباطيل خصومه لمؤلف هذه

الرسالة •

ابراهيم وموسى وداود يتعلمون

نحن نعلم أسماء بعض الأنبياء وأسماء الأمم التي
بعثوا فيها ، ولكننا لا نعلمهم جميعاً ولا تحصيلهم لنا كتب
الأديان الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن • وفى ذلك
يقول تعالى من سورة المؤمن : « ولقد أرسلنا رسلاً من
قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص
عليك • • • »

ونعلم من سير الأنبياء فى التاريخ وفى الكتب الدينية
أنهم يتعلمون من عباد الله الصالحين ، وفيهم من تنبأ وأرسل
ومن لم يكن من الأنبياء أو المرسلين •

وفى سورة الكهف عن موسى عليه السلام وفتاه
« فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من
لدىنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما

علمت رشدا * قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف
تصبر على ما لم تحط به خيرا * *

وبين أكبر الأنبياء المعلومين عندنا ثلاثة من الذين
بعثوا في العبريين وهم ابراهيم وموسى وداود عليهم
السلام ، نعلم من أخبارهم في أسفار التوراة كما نعلم من
أقوالهم فيها أنهم تتلمذوا لأتاس من الأمة العربية ، وأن
أساتذتهم سبقوهم - بداهة - الى ثقافة الدين والى المعرفة
الالهية التى يطلبها الأنبياء ويبحثون عنها * *

وعلى أحد القولين يسمى ابراهيم عبرياً لأنه من
نسل عابر بن سام * *

وعلى القول الآخر يسمى عبرياً لأنه هو وقومه
عبروا النهر الى أرض كنعان * *

وعلى كلا القولين ينتمى ابراهيم الى قبيلة سامية من
الجزيرة العربية ، ويتنقل بين أرض آدام فى المشرق
وأرض كنعان فى المغرب - وكلتاها موطن المتكلمين
بالعربية على أقرب لهجاتها وأطوارها الى اللغة العربية

الحديثة ، فالعرب العاربة كما تقدم تسمى كلها الى الأرمان ،
وأبناء كنعان ينسبون الى أرضهم الواطنة على أشهر
الآقوال • وهى من مادة « كنع » • تشبهها فى لغتنا الحديثة
مادة « قنع » ومادة « خنع » فى الدلالة على الخفض
والاطمئنان •

وقد تحول ابراهيم من أرض النهرين الى أرض
كنعان فروى لنا سفر التكوين من التوراة فى اصحاحه
الرابع عشر أنه تلقى البركة من ملكى صادق • • • « وكان
كاهناً لله العلى ، وباركه وقال : مبارك ابرام من الله العلى
مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلى الذى أسلم
أعدائك فى يدك » •

وقد أعطاه ابراهيم العشر من كل شىء قرباناً الى الله •
ويقول الانجيل فى رسالة العبرانيين ان السيد
المسيح صار « على رتبة ملكى صادق رئيس كهنة الى
الأبد » •

ويقول بعد ذلك فى الاصحاح السابع عن ملكى
صادق : « انه لا بداعة أيام له ولا نهاية حياة » بل هو مشبه

بابن الله • هذا يبقى كاهناً الى الأبد • ثم انظروا ما أعظم
هذا الذي أعطاه ابراهيم رئيس الآباء • • •

فالتوراة والانجيل معاً يصفان الكاهن الكنعاني بصفة
الرئاسة الدينية وصفة الخلود الذي لا يحده الزمان ،
ويرفعانه الى المنزلة التي يتلقى منها ابراهيم بركة الاله
العلی : اله السماوات والأرض • ولا يكون ذلك لانسان
تعلم من ابراهيم ديناً لم يكن يعرفه ، وانما يكون لأستاذ
متقدم في العلم بدينه يتعلم منه ابراهيم •

وليس بين الأنبياء الذين دان لهم العبريون بعد
ابراهيم من هو أكبر مقاماً من موسى عليهما السلام ، ومن
الناس من يقدم موسى على من عداه من أنبيائهم بفضل
الشريعة والقيادة الطافرة الى أرض الميعاد ، وأنهم على
مكائنه هذه ليثبتون عنه في سفر الخروج أنه تعلم من نبي
« مدين » العربي الذي يدعونه يثرون وجوآب ، ويدعوه
العرب باسم شعيب • • ولا التباس في أمر نسبته العربية
بجميع الأسماء •

ففي الاصحاح الرابع من سفر الخروج أن موسى

عليه السلام استأذنه في العودة الى مصر قبل رسالته :
« فمضى موسى ورجع يثرون حميه وقال له : أنا أذهب
وأرجع الى اخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد
أحياء » فقال يثرون لموسى : اذهب بسلام » •

وفي الاصحاح الثاني عشر بعد رواية أخبار موسى
من ذهابه الى عودته : « أن يثرون أخذ محرقة وذبائح لله ،
وجاء هارون وجميع شيوخ اسرائيل ليأكلوا طعاماً مع حمى
موسى أمام الله » •

ومعنى هذا أن شمعيا كان يقرب القرابين الى الله
ويتبعه موسى وهارون وجميع شيوخ اسرائيل •

ثم يستطرد الكتاب قائلاً : « وحدث في الغد أن
موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من
الصباح الى المساء • فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع
للشعب • قال : ما هذا الأمر الذى أنت صانع للشعب ؟
ما بالك جالساً وحده وجميع الشعب واقف عندك من
الصباح الى المساء ؟ فقال موسى لحميه : ان الشعب يأتى الى
ليسأل الله اذا كان لهم دعوى يأتون الى ، فأقضى بين الرجل

وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه • فقال حمو موسى له : ليس جيدا هذا الأمر الذى أنت صانع • انك تكل أنت وهذا الشعب الذى معك جميعا • لأن الأمر أعظم منك ، لا تستطيع معك • الآن اسمع لصوتى فأنصصحك ، فليكن الله معك • كن أنت للشعب أمام الله ، وقدم أنت الدعاوى الى الله ، وعلمهم الفرائض والشرائع ، وعرفهم الطريق الذى يسلكونه ، والعمل الذى يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قدرة خائفين الله أمراء مبغضين الرشوة ، وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات ، فيقضون للشعب كل حين ، ويكون أن كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها اليك ، وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها ، وخفف عن نفسك ، فهم يحملون معك ان فعلت هذا الأمر وأوصاك الله تستطيع القيام ، وكل هذا الشعب أيضا يأتى الى مكانه بسلام ، فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال ، واختار موسى ذوى قدرة من جميع اسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات ، فكانوا يقضون للشعب كل حين • • •

ومعنى هذا أن شعبيا تقدم موسى الى عقيدته الالهية ،
وعلمه تبليغ الشريعة وتنظيم القضاء في قومه ، وأن العبريين
كانوا متعلمين من النبي العربى ولم يكونوا معلمين •

ويأتى داود ، عند العبريين ، بعد ابراهيم وموسى فى
مقام النبوة ، وهو رأس البيت المالك الموعود بالملك الأبدى
فى هذا العالم ، ورب الأسرة التى ينتظرون الخلاص على
يدى ملك من ملوكها يعود الى صهيون آخر الزمان • وقد
كانت الصلة بينه وبين البلاد العربية متجددة متبادلة كما
يفهم من قصة ابنه سليمان وصاحبة عرش سبأ فى جنوب
بلاد العالم ، ولكننا لا نملك من الوثائق ما نستند اليه فى
تقدير آثار هذه الصلة من الناحية الدينية ، وانما نعلم من
الوثائق التاريخية التى سجلها المؤرخون الأوربيون عن
آثار اخناتون أن المشابهة قريبة جدا بين مزاميره وصلوات
ذلك الملك الذى تقدم بالدعوة الى التوحيد فى مصر
القديمة ...

» وقد عقد كل من هنرى برستيت وآرثرو ويجال
Weigall مقارنة بين بعض الصلوات وبعض المزامير

فاتفقت المعانى بينهما اتفاقا لا ينسب الى توارد الخواطر
والمصادفات ، ومن أمثلتها قول اخناتون :

« اذا ما هبطت فى أفق الغرب أظلمت الأرض كأنها
ماتت فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها » .
ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه : « انك تجعل
ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمرجر الأشبال
لتخطف ولتلتمس من الله طعامها » .

ويمضى المزمور قائلا : « تشرق الشمس فتجتمع وفى
مآويها تربض » . والانسان يخرج الى عمله والى شغله فى
المساء . ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت .
والأرض مملئة من غنالك وهذا البحر الكبير الواسع
الأطراف . . . وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار . هناك
تجرى السفن ، ولويathan - التمساح - خلقته ليلعب
فيه . . . » .

« ومثله فى صلوات أخناتون : (ما أكثر خلائقك التى
نجهلها أنت الاله الأحد الذى لا اله غيره . خلقت الأرض
بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالانسان والحيوان الكبار

والصغار * * * تسير السفن مع التيار وفي وجهه وكل طريق
يتفتح للسالك لأنك أشرقت في السماء ، ويرقص السمك
في النهر أمامك وينفذ ضياؤه الى أغوار البحار ، وتضيء
فتزول الظلمة * * * وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسمعون ويرفعون
أيديهم اليك ويمضي سكان العالم يعملون * * *

وأيا كان مصدر هذه المزامير المتشابهة فالواقع المقرر
أن اخناتون سبق داود بأكثر من ثلاثة قرون ، وأن العبريين
لم ينشئوا هذا المذهب في الصلوات الدينية قبل شعوب العالم
في جوارهم ، ولا في غير ذلك الجوار * *



على أن الجوار الملاصق لمساكن العبريين حيث تنقلوا
بين أرض آرام وأرض كنعان لا يشير الى غير علاقة واحدة
بينهم وبين جيرانهم ، وهي علاقة التابعين بالسابقين عليهم
في الثقافة الدينية على التخصيص وفي الثقافات الفكرية على
الاجمال * *

فمن قبل أيام موسى كان النبي العربي « أيوب » في
أرض تيماء يدين بالتوحيد وينكر عبادة الكواكب والأوثان

ويدعو الى المساواة بين الحر والعبد قائلاً متساوياً : أليس
صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟
والشرح ومؤرخو العهد القديم متفقون على سبقه
الى نزاهة التوحيد وتفضيل كتابه فى هذا المعنى على كتب
الأنبياء أصحاب الأسفار فى العهد القديم • ومن هؤلاء
الشرح اسرايليون كالمستشرق مرجليوت الذى يقول فى
كتابيه عن العلاقات بين العرب والاسرائيليين « ان أسلوب
المتكلمين عن التوحيد فى هذا السفر أنزه من أسلوب
الأنبياء الاسرائيليين الذين كانوا يضطربون فى بيثة وثنية ،
خلافًا للمتكلمين فى سفر أيوب فان البديل من الوحدانية
عندهم هو الإلحاد والجحود » •

ويحقق بعض المؤرخين زمان أيوب عليه السلام
بمرصد الفلك مما ذكره فى أسماء النجوم والمنازل كالنعلش
والجبار والثريا ومخادع الجنوب وعين التور وقلب العقرب ،
فيرجحون على رأى أشهرهم هالس Hales أنه وجد قبل
الميلاد بثلاثمائة وألفى سنة • وقد أدخله جامعو التوراة فى
العهد القديم لأنهم حسبوه تارة من كلام موسى وتارة
من كلام سليمان ، وكان جامعو النسخة السريانية من التوراة

يضعون كتابه بعد كتب موسى وقبل كتاب يشوع ، ولكنه أقدم من ذلك ولو لم نأخذ بتقدير الفلكيين . . . لأنه لم يذكر شيئاً عن قصة الخروج من مصر وهى أهم القصص فى تاريخ العبريين ، فلا يسكت عنها من سمع بها فى برية بلاد العرب ، ولا بد أن يسمع بها من أقام هناك بعد خروج العبريين من مصر ان كان زمان أيوب بعد زمان موسى عليهما السلام .



وفى أيام موسى عليه السلام كان العبريون يحتكمون الى نبي من العرب يقيم على نهر الفرات يسمونه بلعام ، ويظن بعضهم أنه مرادف لاسم لقمان . ويقول سفر العدد انه حكم للعبريين على الموابيين وأيد نبوءات يعقوب .

وما لم يذكره العبريون فى كتبهم عن النبوءات فى بلاد العرب أكثر مما ذكروه ، فانما عناهم فى سجلاتهم أن يذكروا التزكية والتأييد ، ولا يذهبوا مذهب الاستقصاء فى تسجيل جميع النبوءات التى سمعوا بها . وقد يكون هنالك ما لم يسمعوا به ولم يكن مما يرتضونه لو أنهم سمعوه .

فليس سكوتهم عن هود وصالح وذى الكفل الذين
ذكرهم القرآن الكريم بحجة على خلق البلاد العربية من
الأنبياء غير من ذكره ، وما كانت قبائل عاد وثمود لتخلو
من رسل الدين • وقد قام هؤلاء الرسل بالدعوة في مدين
وتيماء قبل الدعوة الموسوية ، وانما أعرض العبريون عن
ذكرهم لأنهم جعلوا مصيرهم بعد قيام مملكتهم مرتين
بمصير بيت المقدس وسكتوا قصدا عن « الجنوب » بعد أن
كانت قبلتهم كلها إليه •

فهم قد درجوا من أرض الجنوب في الجزيرة العربية ،
وظلوا بعد ذلك زهاء ألف سنة يلتفتون الى مواطنهم
الأولى ويترقبون الحكمة منها •

فابراهيم توجه الى جيران ، وموسى توجه الى مدين ،
وكان أرميا يهتف في مراثيه سائلا : ألا حكمة بعد في
تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ • • • وتيمان تقابل
في لغتنا الحديثة كلمة يمن بجميع معانيها •

بل بقيت عادة التوجه الى الجنوب عند رسل القوم الى

ما بعد قيام المسيحية • فكان بولس الرسول يقول في كتاب
غلاطية انه ذهب الى بلاد العرب قبل مسيره الى دمشق •

أما تركيز القداسة في اورشليم فهو شيء جديد
طارىء بعد أيام موسى بزمان طويل ، فبقيت اورشليم في
أيدي اليوسيين بعد موسى بقرون عدة ، ولم يطردهم منها
أبناء بنيامين بعد نزولهم بجوارها ، وبعد أيام داود جاء ملك
من ذرية ابراهيم - يسمى يهواش - فهدم سورها وأخذ
ودائع الذهب والفضة من خزائنها • وقال سفر الملوك
عنه : انه مات فاضطجع مع آبائه ، أى مات مرضيا عنه في
اصطلاحهم المؤلف •

انما تحول القوم باتجاههم من الجنوب الى بيت المقدس
بعد ارتقاط الهيكل بمصير بيت داود ، وتعلق أملهم في
الخلاص بعودة الملك الى ذلك البيت في آخر الزمان •

وأما قبل ذلك فقد كانوا يستقبلون الجنوب ويلوذون
به ويتعلمون منه ، ولم يأخذ منهم الجنوب شيئا من ثقافته
الدينية في أيام دولتهم ولا بعد أيامها • ولن تكون الدعوة

المحمدية التي ارتفعت من بلاد العرب فرعا من هذا الأصل
الذي لم يتأصل قط في الوجدانية • فان الدعوة الى عبادة
رب العالمين دين لا يلتقى بدين العنصرية المنعزلة في طريق
واحد ، وان نبوة الداعي الذي لا يعرف من النبوة غير
الهداية لطراز من النبوة لا يختلط بالتنجيم •

اللغة والكتابة

وفد العبريون من جنوب الجزيرة - على القول
الراجع - الى وادى النهرين ، ثم هاجروا من جنوبه الى
شماله ، وانحدروا - من ثم - الى أرض كنعان ، وكانت
لهم لهجة من لهجات اللغة السامية الكبرى قريبة من سائر
هذه اللهجات التى كان يجرى الخطاب بها بين قبائل آرام
وكنعان ، ويسهل التفاهم بها فى جملتها مع اختلاف يسير
كاختلاف المتكلمين فى القطر الواحد بين اقليم واقليم .

ومن الواضح أنهم كانوا يتعدون عن مصدرهم الأول
فى اللغة كلما ابتعدوا عن موطنهم القديم فى الجنوب ،
فأصبحوا بعد هجرتهم الطويلة يتداولون من الأسماء
والأعلام ما لا يفهمون معناه ولا وجوه تصريفه ، وهو فى لغة
« سبأ » من جنوب الجزيرة مفهوم المعنى والمصدر الذى
تصرف منه بلفظه واشتقاقه ، ويقول مرجليوت فى كتابه

المتقدم ذكره عن العلاقة بين العرب وبنى اسرائيل : « ومن
المحقق أن هذه الكلمات لم تأت من فلسطين الى سبأ ، ولعلها
قد جاءت من سبأ الى فلسطين » •

ولم تنزل لهجة العبريين تنزل عن حولها كلما
أمعنوا في اعتزال الأمم بعبادتهم واعتقادهم التفرد بينها
بنعمة الله ورجائه ، بل باعتقادهم أن « يهوا » إنما يحقق
لهم ذلك الرجاء بتدمير جيرانهم وتمكينهم من رقابهم ،
فلا سبيل الى المشاركة باللغة مع هذا الحاجز القائم بين
الفريقين ، وأصعب ما يكون التفاهم باللغة حين تستخدم
هذه اللغة في العبادة والشعائر المقدسة حين تكون العبادة
والشعائر حكراً لمن يدينون بها ولا يقبلون من غيرهم أن
يشاركهم فيها •

وقد تحجرت اللغة العبرية في هذه العزلة واستطاعت
مع هذا التحجر أن تعيش في عصر المملكة وفي ابان
الشوكة والسيادة برعاية الملوك والكهان ، ولكنها كانت
تعيش في الهيكل وتوابعه من « الكنيسات » التي يشرف

عليها الأحيار المتعلسون المزودون بالتقافة الدينية ، وكان أصحابنا يتكلمون مع غيرهم خارج المعابد فيضطرون الى مخاطبتهم تارة باللهجات السامية الأخرى وتارة باليونانية العامة ، وقد تعلمها بعضهم ويتعلم الكتابة بها على خلاف هوى المتعصبين من الهيكليين والغلاة •

وكانت هذه العبرية حين تحجرت ووقفت عن التطور لهجة ساذجة قليلة العدة ناقصة التصريف • ويقول فولتير في المعجم الفلسفى تحت كلمة آدم : « انه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جدا وقرأوا قليلا جدا وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافية والطبيعات فلم يعرفوا شيئا من تواريخ الأمم ولم يأخذوا فى المتعلم الا بعد اتصالهم بالاسكندرية حيث شرعوا فى اقتباس المعرفة ، وكانت لغتهم البربرية مزيجاً من الفينيقية القديمة والكلدانية المشوهة ، وبلغ من فقرها أنها لا تحتوى كثيرا من الأزمنة فى أفعالها » •

ومن المسلمات المفهومة بين العارفين بالعبرية والعارفين بتاريخها أنها أخذت من اللهجات السامية ولم تعطها شيئا

جديدا من فنون التطور في قواعدها أو آدابها • فوقفت
حيث بدأت وتركتها اللهجات السامية واقفة في مكانها وهي
تتطور وترقى الى الشأو الذي بلغته في الأزمنة الحديثة ،
ولم يكد عصر المملكة اليهودية أن ينقضى حتى كانت اللغة
العبرية منقضية بين أهلها في الخطاب وفي الكتابة ما خلا
الصلوات والعبادات ، ثم انهزمت بين جدران المعابد وعلى
ألسنة الأنبياء والكهان ، وخلفتها اللغة الآرامية في معاملات
الدين ومعاملات المعيشة اليومية ، ثم مضى العصر بعد العصر
الى زماننا هذا فأصبح قراء التوراة بالعبرية أقل عددا من
قرائها بأصغر اللغات •

ولا يعزى هذا الى مجرد سقوط الدولة اليهودية ولا
الى نقص في عدد العبريين الذين يدينون بكتبهم المقدسة •
فان الدولة الآرامية في وادي النهرين سقطت وسقطت بعدها
دول الآراميين المتفرقين بين أنحاء البادية ولم تزل لغتهم
الآرامية تنتشر وتتغلب على نظائرها من اللهجات السامية
واللهجات الأجنبية التي تسربت الى مواطنها من سائر
الأقطار • وانما يعزى سقوط العبرية الى عجزها عن
« الإنتاج » الذي ينفع الناس ، فلم يكن عندها ما تعطيه ولم

تكن وعاء صالحا يستودعه خدام الفكر والمعرفة ما يعطون •

أما الكتابة فهي من أبرز المسائل التي تمتحن بها
قدرة العبريين في تاريخهم القديم على الانتاج والتصرف
في شئون الفكر والثقافة ، وهي كذلك من أبرز المسائل
التي تمتحن بها بواعثهم الفكرية التي تدعو الأمة المنتجة الى
اختراع الوسيلة للافضاء بما عندها لسائر الأمم من رسالات
الإنسانية وأماناتها •

أقام العبريون في مصر عدة قرون وأقاموا في سيناء
عدة سنين •

وفي مصر - كما هو معلوم - كانت نشأة الكتابة
بالصور ، وفيها تطورت من الكتابة التصويرية الى الكتابة
المقطعية ، ثم تطورت من الكتابة بالمقاطع الى الكتابة بالحروف
التي يستقل كل حرف منها بصوت يدل عليه في كل كلمة
مكتوبة •

ولقد كان ينبغي أن يسبق العبريون غيرهم من
القبائل السامية الى اقتباس الكتابة على أنواعها ، سواء أكانت

بالصور أم بالمقاطع والحروف ، بل كان ينبغي أن نكون
ألواح الشريعة التي تلقوها في سيناء باعثا لهم على استكشاف
الألواح المكتوبة في مناجمها بما عليها من الخطوط
والحروف •

ولكن الواقع الذي يسجله تاريخ الكتابة أنهم لم
يبتدئوا قط عملا من أعمال اقتباس الكتابة ولا من أعمال
ترقيتها ونشرها ولا من أعمال التوفيق بينها وبين مخارج
النطق في كلماتهم الملفوظة وإنما كانوا في كل مرحلة من
هذه المراحل مستفدين يأخذون مما سبقهم ويتحجرون
عليه ، حتى تقسروهم على تغييره ضرورات المعاملة فيسرى
التغير قهرا - مع الزمن - الى كتابة الشعائر والعبادات •

فالكلمات العبرية التي وجدت في رسائل أمراء
فلسطين الى فرعون مصر منذ القرن الخامس عشر قبل
الميلاد كانت تكتب بالحرف المسماري كما حقق ذلك
الأستاذ جمن Gimmun من أساتذة دار الفنون بليزج (١) •

(١) كتاب الكنز في قواعد اللغة العبرية للدكتور محمد بدر .

ثم وجدت حروف عبرية تشبه الحروف التي وجدت
على خريج ميشاع ملك موآب •

وظل العبريون يكتبون بهذا الحرف الى أيام سبى
بابل ، فنقلوا الحروف المربعة عن الحروف البابلية ، وزادوا
عليها حروف الحلق التي كانت شائعة على السنة الساميين
بين بابل وكنعان ، وكلها من مصدر عربى كما لا يخفى ،
لاختصاص النطق العربى بأكثر هذه الحروف •

وقد حفظ لنا الزمور التاسع عشر بعد المائة أسماء
الحروف التي احتوتها الأبجدية العبرية على عهد المملكة ،
لأنه جرى على طريقة التطريز فى ابتداء كل مقطوعة
بحرف من الحروف الأبجدية وهى فى هذا الزمور على
ترتيب (أبجد هوز حطى كلمن سعنص قرشت) ••
اثنان وعشرون حرفا منها خمسة يتغير نطقها باغفالها من
الاعجام أو ينقلها من اليمين الى اليسار وهى الجيم والواو
والكاف والشين •

ومن آثار الاقتباس من النطق العربى أن حرف الغين
لم يكن موجودا بين حروف الزمور ، فلما وجد بعد

اختلاطهم بمن ينطقون العربية أضافوه وسموه غيميل أى
على وزن جيميل • ويلاحظ أن (جيميل) بمعنى جمل
عندهم •• أما غيميل فلا معنى لها غير المحاكاة اللفظية ،
وانما قاسوها الى أقرب المخارج فكتبوها كما تكتب الجيم
وحذفوا نقطة الاعجام للتمييز بينهما •

ولم يكن فى نطقهم تمييز واضح بين الحاء والكاف ،
فلما كثر التمييز بينهما على أسماعهم أيام تعلموا الكتابة
جعلوا للحاء حرفاً سموه الحاف على وزن الكاف ، وكتبوه
كما تكتب الكاف بعد حذف نقطة الاعجام •

ولما اتصلوا بأعاجم الشمال الذين ينطقون الواو
« فاء » كما يقول بعض الطورانيين « فلاضالين » بدلاً من
« ولاالضالين » - نطقوها مثلهم وجعلوا لها حرفاً كالواو فى
رسمه بعد حذف نقطة الاعجام •

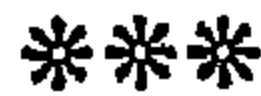
كذلك أخذوا السين الآرامية المسماة بالآرامية سمخ
حين كتبوا بهذه اللغة ، لورودها فى كلمات كثيرة من
أسفار التوراة ، وهذا مع احتفاظهم بالسين ، (لاختلاف

النطق قليلاً بين اللهجتين في أحرف الذلق وأحرف
الصفير •

وليس في العبرية ثاء ولا ذال ولا ضاد ولا ظاء ولكنهم
يقربون حروفهم منها بالتفخيم أو يكتفون بما يشابهها من
حروفهم فيحدث الالتباس أحياناً في نقلها إلى العربية •
ويشتبه الأمر في البحث عن مصدر الكلمة من جراء هذا
الالتباس ، كما يحدث في كلمة الناصرة هل هي من النصر
أو من النذر أو من النظر • • ؟ وكلها مميزة المعباني
والمخارج في العربية ملتبسة كما نرى في العبرية ، ويزيد
الالتباس أن البلدة كانت قريبة من موقع نصر وكانت
مسكناً للكثيرين من المنذورين للعبادة ، وكانت مرقباً يسهل
النظر منه إلى ما حواليه •

وقد نقحت الكتابة العبرية مرة أخرى حوالى عصر
الميلاد على هدى الكتابة الآرامية ، فلم تنجح الحيل في إحياء
هذه اللغة التي قضى عليها بالموت لعزلتها وفراغها من مادة
البقاء التي تكفل الحياة للغات بما تؤديه للعالم من رسالة
إنسانية أو عقيدة عامة ، ثم هدم الرومان هيكل بيت المقدس

فتفرق الكهان فى الأرض واتخذوا اليونانية لغة لهم فى مصر
وأوربة واعتمدوا على ترجمة التوراة إليها أو الى الآرامية
للذين تخلفوا عن الهجرة فى بلادهم ، وقد شاعت يومئذ
تسمية الآرامية بالسريانية للتفرقة بين المتكلمين بها من
المسيحيين ، والمتكلمين بها من أبنائها الذين لم يدخلوا فى
المسيحية ، ثم اندمجت السريانية المتطورة بعد ذلك فى
العربية القرشية على أثر ظهور الاسلام •



ولما كان القرن العاشر للميلاد أيقن أحبار اسرائيل
ورؤساهم بضياع العبرية وقلة صلاحها للبقاء بالتعليم
والتلقين فى نطاق المعابد المحدودة ، فانها لم تكن صالحة على
حالتها فى ذلك العهد للتعليم لخلوها من القواعد والأمسول
التي تحفظ اللغة من جيل الى جيل •• فرجع الأحبار الى
النحو العربى يقيسون عليه ويستعيرون منه : وكتبوا
«أجروميتهم» الأولى باللغة العربية مقرونة فى بعض الأحيان
بالترجمة العبرية وكان أول من اجتهد منهم فى تحرير
كلماتها وجمعها سعيد بن يوسف الفيومى - أو سعديا -
صاحب معجم الأجارون وكتاب الفصاحة (١٩٢ م) •

وتلاء الرباني ابن تميم البابلي ، والرباني يهودا بن قريش
والرباني مناحم بن سروت الأندلسي ، والرباني سكوم
ابن جيبرول وغيرهم وغيرهم من تلاميذ العرب في المغرب
ومصر والعراق •

وتتلمذ القوم على العرب في علم الكلام الاسرائيلي
أو فلسفة اللاهوت ، فكان كل من فيلسوفهم ابن جيبرول
(١٠٢١ - ١٠٥٨) الملقب بافلاطون اليهود وابن عزرا
الغرناطي (١٠٧٠ - ١١٣٨) صاحب الغزل الصوفي
وابن ميمون أرسسطو اليهود (١١٣٥ - ١٢٠٤) تلاميذ
للمدرسة الرشدية بالأندلس • وكان ابن ميمون يرى كما
قال : ان وصايا الناصري ورجل اسماعيل يعني محمدا عليه
السلام تهدي الانسان الى الكمال • ولهذا ثار عليه المتعصبون
من قومه وسموا كتابه دلالة الحائرین بضلالة الحائرین •
وأول هؤلاء - ابن جيبرول - وضع منظومة في النحو العبري
على مثال النحو العربي فيما عدا قواعد الاعراب ، لأن
الكلمات العبرية اما ساكنة أو مبنية ، لا تجري في تحريك
أو اخرها على قواعد الآرامية ولا على قواعد العربية الحديثة •

وأهم كتبه في اللاهوت « ينبوع الحياة » منظور فيه
الى التصوف الاسلامى فى كثير من التفصيلات •

ولم ينبغ بين اليهود من الفلاسفة العالمين من هو أشهر
من باروخ سنبوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) الذى نشأت أسرته
فى البلاد الألمانية ، وتوفر فى صباه على دراسة كل من ابن
ميمون وابن عزرا ، ثم خلفه المشتغلون بالفلسفة من اليهود
بعد ظهور الفلاسفة الكبار من الألمان ، فكان القوم كعادتهم
مستفيدين فى هذا الفرع الواسع من فروع الثقافة الانسانية
كشأنهم فى كل ثقافة تلقوها بين الأقدمين والمحدثين •
وكانوا حيثما اشرؤكوا مع العرب فى ناحية من نواحي
المعرفة والعقيدة تابعين مسبوقين ولم يكونوا قط سابقين لهم
أو مرشدين •

الشعر

إذا كان في نشأة الشعر العربى من الحداء بعض
الشك ، فليس هنالك أقل شك في الصلة الوثيقة بين الحداء
والشعر في تطور تركيبه وتوفيق أوزانه وتقسيم أعاريضه .
لأن أوزان الشعر التى نظم فيها شعراء الجاهلية تنتظم فيها
الأعاريض جميعا مع حركة من حركات الابل فى السرعة
والأناة . فلا خفاء بهذه الحركة السريعة فى هذا البيت :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ولا خفاء بالحركة المتمهلة فى هذا البيت :

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلا يحملن أم حديدا

ولا خفاء بحركة الابل على اختلافها وما يناسبها من
أوزان الحداء فى كل بيت ينتظم من أمثال هذه التفاعيل .

والحداء نفسه مناسبة شعرية تستوحى الغناء فى لىالى

البادية القمراء ، بين الحنين الى الوطن الذى بارحه الراكب ،
والأمل فى المنتجع الذى يتنقل اليه ، وليس لترديد الغناء
- بمعانيه الشعرية مجال أقرب الى الحياة البدوية وألصق
بها من مجال الحدا .

فلا نزاع فى الصلة الوثيقة بين الحدا ووزن الشعر
العربى ، فان لم يكن كل ما نظمته العرب حدا يتغنى به
الحدا فعلا فهو وزن لا يخالفه ولا ينفصل عن نغماته
وأعاريضه .

والمرجع الى جانب هذا أن حدا الابل كان له عمله
المحسوس فى التزام القافية ، سواء بدأت القافية فى سجع
الكهان كما يزي الكثيرون ، أو كان ابتداءها فى غناء
الحدا .

فالمشاهد من أشعار الأمم فى لغات متعددة أن القافية
تلتزم فى الشعر المنفرد ، أى الشعر الذى يتغنى به ناظمه
وراويه ، ويصغى اليه المستمعون دون أن يشتركوا فى
الغناء ، ويلاحظ هذا فى أغنائى المنشدين الحماسيين أو

المتغزلين التي يسمونها Ballads (بللاد) في بعض
اللغات الأوروبية ، كما يلاحظ في الموشحة Sonnet
التي يتغنى بها العاشق لمعشوقته في البلاد اللاتينية حيث
كان منشؤها الأول ، وقيل انهم استعاروها من الموشحة
العربية •

وتهمل القافية غالبا في أناشيد الجماعات سواء كانت
مسرحية أو دينية كما يرى في أناشيد اليونان والعبريين ،
وسر ذلك ظاهر لمن يريد أن يختبره في حالة الاصغاء ،
أو حالة الاشتراك في الغناء •

فان السامع المصغى الى ترتيل غيره يحتاج الى تنبيه
السمع وانتظار مواضع الوقوف والترديد ، فيعرفها من
القافية المتتابة في مواضعها •

أما المنشد المشترك في الغناء فهو يعلم مواضع الايقاع
ومواضع الابتداء والانتهاء ، فيغنيه الاشتراك في الايقاع
عن انتظار مواضع الوقوف ، وعن تنبيه غيره له بالقافية الى
تلك المواضع ، وقد تبين هذا الفارق فيما تنشده بأنفسنا
ولو كان من الكلام المنشور ، فاننا تتبع الوزن في هذه الحالة

ولا يعني أن تترقب القافية ، بل لا يعني أن تترقب شيئا
غير الاسترسال في النغم الى نهاية الكلام كيفما كان انتهاء
مقفى أو بغير قافية ، شأنه في ذلك شأن اللحن الموسيقى
الذى خلا من الكلمات ، فلا يلتفت فيه الى غير امتداد النغمة
حسب أوزان الأيقاع •

وكثيرا ما خطر لنقاد الغرب أن هذه القوافى والبحور
في وزن الشعر خاصة من خواص الأمزجة السامية خالف
الساميون بها الأوروبيين لمخالفتهم إياهم في تكوين الفطرة
وخصائص العناصر البشرية •

لكنهم فهموا بعد تواتر البحث في أشعار اللغات
السامية أن القافية غير ملتزمة في جميع تلك اللغات ، وأن
كثيرا من الشعر المنظوم فيها خال من البحور والأعاريض
ذات التفعيلات المتكررة ، كأنه فواصل النثر التي تنقسم
الى جمل متقاربة ولا تنقسم الى شطور متساوية في حركات
الأسباب والأوتاد على اصطلاح العروضيين •

فلا بد إذن من البحث عن سبب غير الأمزجة
العنصرية ، ولا بد أن يكون اختلاف الانشاد هو سبب هذا

الاختلاف بين العرب وسائر الشعوب السامية • فان شعوب وادي النهرين ألقت أناشيد الكهان في الهياكل فترخصت في القافية كما ترخصت فيها الشعوب الآرية التي يتغنى فيها الناس مجتمعين ، وقد ألف العبريون العبادة معا منذ كانوا قبيلة واحدة تنتقل بحذاقيرها ، وتتهبل بحذاقيرها الى معبودها في حظيرة واحدة • ولم تألف قبائل البادية العربية نوعا من أنواع الأناشيد المجتمعة ، فغلبت على شعرها أوزان القصيد المفرد وقوافيه •

ويرى بعض علماء اللغات السامية أن الكلمة التي تفيد معنى الشعر فيها واحدة مأخوذة من أصلها العربي مع قليل من التحريف طرأ عليها بعد انتشار الساميين في وادي النهرين وبادية الشام وأرض كنعان • ويقول العالم القس الأب مرمر مجي في كتابه المعجميات : « ان لفظة الشعر كانت تدل قديما على الغناء وان لم ترد بهذا المفهوم في المعاجم التي بين أيدينا • ويمكن الاستدلال على ذلك بوسيلة المقارنة الألسنية السامية • اذ أننا نجد في أقدم اللغات السامية من حيث الآثار المكتوبة ، أي اللغة الأكديّة كلمة (شيرو) الدالة على هتاف الكهان في

الهياكل ، ومن الأكديّة انتقلت اللفظة الى العبريّة بصورة
 (شير ، وشيره) ومعناها التشيد ، ومنها صيغ الفعل المرتجل
 (شير) بمعنى أنشد وغنى ، ثم الى الآرامية بصورة
 (شور) بمعنى أنشد ، رنم ، غنى . ومن ذلك جاء اسم
 سفر من أسفار العهد القديم وهو (شير هشيريم) أى
 تشيد الأنشيد ، وقد ورد الفعل العبري (شير) فى أقدم
 أثر للغة العبرية وهو تشيد النية دبورت ، يليه مرادفه
 (زامر) وكلاهما بصيغة الحاضر (اشيره) أى أنشد وأزمر .
 والجدير بالملاحظة كما أشار الى ذلك لانجدون Langdon
 أن العبارة الأكديّة (زامار شيرى) تطابق كل المطابقة
 العبارة العبرية (مزموّر شير) ومفرداهما فى العبرية
 (مزموّر ، تشيد ، أو شعر) . . هذا ومعلوم أن أغلب
 الأحرف الحلقية ، ومنها العين ، قد سقطت فى الأكديّة ،
 أو أنها كانت تلفظ دون أن تمثلها علامة فى الكتابة ،
 لأن الرسم المسمارى المستعار للأكديّة السامية من الشميرية
 غير السامية - كان خاليا من العلامات للحلقيات ، لخلو
 الشميرية منها ، ولهذا جاز لنا افتراض أن كلمة (شير)
 كان أصلها أو لفظها (شعرو) الا أنها ولجت العبرية

والآرامية وهى خلو من العين كما كانت مصورة فى الرسم
المسمارى • أما العربية فقد ظهرت أو بقيت فيها العين
الأصلية •• على أن العربية والعبرية قد احتفظتا بالكسرة
المحركة بها الشين فى الأكديّة (شير) فجاء فى العبرية
(شير) وفى العربية (شعر) والكلمة (شير) مشتقة
حسب معناها فى الأكديّة والعبرية أى معنى الهتاف ثم
الغناء ••• « •



ولا غرابة فى أن تكون كلمة (الشعر) فى لغة
الجزيرة سابقة لمرادفاتها فى وادى النهرين وأرض كنعان ،
لأن الجزيرة كانت مصدر الهجرات المتوالية الى تلك
المواطن كما تواتر فى أشهر الأقوال •

على أن المعلوم لنا الآن من أطوار الشعر فى اللغات
السامية أنه تحول فى الآرامية والعبرية من الفقرات
المسجوعة على نحو أسجاع الكهان الى السطور المتوازية
على نسق قابل للترنم والانشاد ، ثم توقف به التطور عند
هذه المحاولة لارتباطه بالشعائر الدينية • وهذا بينما تطور

النظم فى بلاد الجزيرة العربية حتى أصبح (فنا) مميزا بأوزانه وأقسامه التى تعرف بأسمائها دون أن تنسب الى ناظم معلوم ، على حين أن القصائد العبرية لا تعرف باسم فنى يدل عليها ، وانما تعرف بأنها قصيدة كالتى نظمها هذا الشاعر أو ذاك من شعرائهم المشهورين ، وتميز بعلامات خاصة ولا تميز على قاعدة عامة تغنى عن الإشارة الى ناظمها •

وبعض اللهجات السامية توقفت عند السطور المتوازية ، ولم تتطور بها الى تقسيم الأوزان والتفاعيل الواضحة • فكان كثير من شعرها يخلو من التفاعيل والقوافى اعتمادا على مضاهاة السطر بالسطر والترنيم بالترنيم •

يقول الأستاذ جلبرت مورى فى بحثه عن الأوزان والأعاريض : « ان احدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية فى اللغات الحديثة • ففى اللغتين اليونانية واللاتينية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فىهما واضحة ، وانما تدعو الحاجة الى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للموقف ، وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان

وتغمض ، ولا تستين للسامع مواضع الانتقال والانفصال ،
بل لا يستين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام
مشور ، وقد اختلف الطابعون هذا الاختلاف في بعض
المناظر المرسل من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من
المتشور وحسبها الآخرون من المنظوم * ومما يلاحظ أن
اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه الى النسبة
العددية * * وأن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم
لا يلتزمون الأوزان * وأن انتشار القافية في أغاني الريف
الانجليزية يقترن بالترخص في التزام الأعارض * .

ويستطرد العلامة الناقد الأديب الى الشعر الفرنسى
فيقول : « ان اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن الى
مجرد احصاء المقاطع وأصبحت المقاطع بين مطولة
وصامتة * * نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة الى القافية
فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الأمر الى
تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه * » .

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في أشعار
الغربيين ذلك السبب الذي ذكرناه آنفا ولم يذكره العلامة

جلبرت موري : وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ الذي يحفظه المغنون جميعا بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته • فانهم في هذه الحالة ينساقون مع الايقاع بغير حاجة الى القوافي عند نهاية السطور ، ولهذا نرى أن شعراء هذه اللغات بعينها يلتزمون القافية في أناشيد الأفراد ويكثرون من القافية في المقطوعات التي يرتلها المنشدون المعروفون باسم ال Bards أو اسم (Minstrals) وكلهم يرتلون أو يترنمون بما ينشدون • •

فلا شعر في لغة من اللغات بغير ايقاع ، وقد يجتمع كله من وزن وقافية وترتيل في القصيدة الواحدة ، ولكنه اجتماع نادر في لغات العالم ميسور في لغة واحدة على أكمل الوجوه لامتيازها بالخصائص الشعرية الوافرة في ألفاظها وتراكيبها وهي اللغة العربية •

فالكلمات نفسها موزونة في اللغة العربية ، والمشتقات كلها تجري على صيغ محدودة بالأوزان المرسومة كأنها قوالب البناء المعدة لكل تركيب ، وأفعال اللغة مقسومة الى أوزان مميزة في الماضي والمضارع والأمر ، وفي الأسماء والصفات التي تشتق منها على حسب تلك الأوزان ،

ولا نظير لهذا التركيب الموسيقى فى لغة من اللغات الهندية
الجرمانية ولا فى كثير من اللغات السامية • فالذى يميز اسم
الفاعل وزن متفق عليه فى الأفعال الثلاثية والأفعال الرباعية
أو الخماسية ، ولكنه فى اللغات الأوربية يأتى بإضافة حروف
لا يعرف لها وزن مقرر قبل الإضافة ولا بعدها •

ويجب ألا تتعجل فنحسب أن هذا الفرق فى
الخصائص الموسيقية يرجع الى الاختلاف بين الأمم الآرية
والأمم السامية كما توهم بعض المستشرقين وبعض المتعجلين
من كتابنا الشرقيين •

فاللغة العبرانية كما أسلفنا لغة سامية فى أصولها
ولكنها على ما رأينا خالية من الوزن والقافية ، وتستعوض
منهما بالأسطر المتوازية والكلمات المترددة بين السطر الأول
وما يليه • وقد كان العبريون يجهلون فنون العروض
عندهم حتى انكشفت للباحثين اللاهوتيين بعد ترجمة
التوراة والانجيل واطلاع علماء اللاهوت على أصول اللغات
التي كتبت بها أسفار العهدين القديم والحديث ، فانبكشفت
للأسقف لوث Lowth فى القرن الثانى عشر أن أشعار

الكتابين لا تجرى على وزن محدود وأن قوام الشعر عند
العبرانيين سطر يرددونه لأغراض ستة ، وهي : المجاز
والاستطراد والتفسير والمبالغة والمقابلة والمقارنة •

ومن أمثلة التردد لمقابلة المعنى الحقيقي بالمعنى
المجازي قول المزامير : (من السيف أنقذ نفسي ، ومن يد
الكلب أنقذ وحيدتي) •

ومن أمثلة التردد للاستطراد قول أيوب : (هناك
يكف المنافقون عن الفتنة ، وهناك يكف المتعبون
فيستريحون) •

ومن أمثلة التردد للتفسير قول المزامير : (من هو
الإنسان الخائف من ربه ؟ هو الإنسان الذي يهديه الرب
إلى طريق يرتضيه) •

وهكذا سائر الأمثلة في الأسطر المتوازية وإن
زادت على سطرين ، وقد تزيد بعدد الحروف الأبجدية
على طريقة التطريز في اللغة العربية كما يلاحظ في وزن
المزمور التاسع عشر بعد المائة فإنه يتألف من اثنين وعشرين

حرفاً - عدد أحرف الأبجدية - كل حرف منها يقترن
بسطر من المزمور *

وعلى هذه القاعدة بنى النظم فى العبارات الموقعة التى
ترددت فى العهد الجديد ، وقد أثينا بأمثلة منها فى كتابنا
(عبقرية المسيح) نكتفى منها بهذا المثل من وصايا
السيد المسيح :

« اسألوا تعطوا » *

« اطلبوا تجدوا » *

« اقرعوا يفتح لكم » *

« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن

يقرع يفتح له الباب » *

« من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه خبزاً ؟

« ومن منكم يسأله سمكة فيعطيه حية ؟

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً ؟

« فاذا كنتم وأنتم أشرار تحسنون العطاء للأبناء فكيف

بالأب الذى فى السماء ؟ »

فالحواص الشعرية التي امتازت بها لغتنا العربية ليست
من خواص اللغات السامية ، وليس لها نظير في العبرية
ولا في الكلدانية ولا في معظم اللهجات التي تفرعت على
أصول الكلام عند الساميين ، ولكنها خواص ممتازة تنفرد
بها هذه اللغة لأسباب كثيرة لا داعية لأحصائها في هذا
المقام ، ولا نحب أن نعرض منها للأمور التي يطول فيها
الجدل وتضطرب فيها منازع الآراء والأهواء . إذ كان
امتياز الحروف العربية بالدلالة على الحساسية الموسيقية
حقيقة ملموسة لا محل فيها للمحال ، فالأذن العربية تميز
بين الظاء والضاد ، وبين الذال والداد ، وبين الحاء والحاء
والهاء ، وبين الصاد والسين والشين ، وبين الجيم والgin
والعين ، وبين القاف والكاف والحاء ، وقلما يميز الناطقون
باللغات الأخرى بين هذه الحروف ، وإذا وجدت في تلك
اللغات حروف لا تنطق بالعربية كالفاء والباء الثقيلتين فهما
في الواقع حرف يصدر من مخبرج واحد بين التخفيف
والثقل ، وليست ذات قيمة موسيقية مستقلة كالحروف
التي ذكرناها في اللغة العربية .

ومن العلامات الموسيقية المركبة في بنية الكلمة أننا

نميز بين الحركة وحرف العلة على خلاف اللغات غير
السامية ، فعندنا الواو والضمة وعندنا الياء والكسرة ،
وعندنا الألف والفتحة ، وعندنا السكون وما يشبهه من
التنوين •• وأدل من ذلك على الموسيقية الطبيعية بناء
المشتقات على الأوزان واختلاف معنى الكلمة باختلاف
الصيغة التي تبنى عليها •

ويمثل هذا من الدلائل البدائية التي تحسب من
حروف الأبجدية في علم الموسيقى أن الغربيين يسقطون
(الكوما) من الأصوات المحسوسة ، وأن الموسيقى الشرقية
تحسب الصوت الذي يسمع من ربع (الكوما) وهو همزة
تأتي من نصف مليمتر في الوتر الذي يبلغ طوله متراً
كاملاً ، وتسمى لهذا في اصطلاحهم بالذرة الموسيقية •

ونستخلص مما تقدم أن فن الصياغة الشعرية سلك
في تطوره ثلاثة مسالك متفاوتة في أمم شرقية وغربية
لا تنتمي إلى سلالة واحدة وبينها من الاختلاف كما بين الصين

وأوربة الحديثة ، أو كما بين الشعوب السامية واليونان
فى العصور الغابرة •

ففى بعض الأمم يتوقف هذا الفن عند السجع الذى
يتردد فى الفقرات القصيرة كسجع الكهان ، فاذا طالت
القصيدة روعى فيها تنسيق الأسطر المتوازية يترنم بها
الجماعة فى أناشيد العبادة أو التمثيل ولا تراعى فيها
القافية •

وفى أمم أخرى تراعى القافية ولا يراعى الوزن
الا بالمقدار الذى يسمح بمساوقة الغناء والترتيل • ويلاحظ
أن شعوب الصين التى غلب عليها هذا التطور وظهرت
القافية فى صياغة شعرها قد عرفت الجمل والخيمة ولا يزال
مسكنها المعروف « بالباجودا » مبنياً على أشكال الخيم
البدوية وأوضاعها •

وفى الأمة العربية وحدها تم التطور فانتظم الوزن
بتفصيلاته وأسبابه وأوتاره وروعيت فيه القافية ، وقامت
صياغة الشعر فناً خالصاً مستقلاً عن الغناء ، يعرف بأسماء

بحوره وقواعد أوزانه ولا يلحق بشخص هذا الناظم
أو ذاك في تعريف أساليبه وتمييز أقسامه •

ولا يعزى هذا الفارق النادر الى الحداء وحده أو الى
انفراد الحادى بالغناء ، بل يعزى اليهما معاً مقترنين بتلك
الحساسة السمعية التى تفرق بين مخارج الحروف ودقائق
النغم ، وهى مشتركة غير مميزة فى لغات كثيرة •

ولسنا هنا بصدد البحث فى موضوعات الشعر ولا فى
مذاهب الشعراء ، فانه معرض من البحث لا سبيل فيه الى
ترتيب السابق والمسبوق ، وانما يعنينا السابق المحقق
بشواهد الحس والواقع وهو السابق الى فن الصياغة
الشعرية ، فلا نزاع هنا فى تطور هذا الفن بين عرب
الجزيرة قبل تطوره بين العبريين من القبائل السامية
وبين اليونان من الشعوب الهندية الجرمانية •

••• ونهاية المطاف

ولعلنا فى نهاية المطاف قد اتضح لنا المقصد الذى توخيناه وأجملنا بيانه فى كلمة التمهيد لهذه الرسالة •
فهو تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية فى ميادين الثقافة والحكم عليها أبدأ ، وفى جميع الأحوال ، بأنها تبع مسبوق يقتدى باليونان فى ثقافة الفكر ، بالعبريين فى ثقافة العقيدة ، وليس للأمة العربية سابقة من سوابق الفضل يدين لها أولئك اليونان وأولئك العبريون •

وقد لجج الأوروبيون فى هذه الدعوى لحاجة بغية تتكشف عن سوء نية ، ويبدو عليها كأنها تتعسف فى البحث عن أسباب التجنى والانكار فتخلقها خلقاً وتعيد عن الطريق السوى جيداً ، لكى تنتهى من ذلك الى قدح فى الطبيعة العربية وتمجيد لطبيعة من طبائع الأمم سسواها ، حيثما تكون •

فقد يترخصون أحياناً في نسبة الفضل القومى
أو العنصرى الى سلالة هندية ، لأن الأوربيين يدخلون فى
الجامعة الهندية الجرمانية ، اذا دعت الضرورة •

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى
الى سلالة صفراء أو طورانية ، لأنهم قد يعادونها اليوم
ولكنهم لم يرثوا من أجدادهم عداوة لها من عصبيات
القرون الوسطى •

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى
الى العبريين ولو كان المترخصون ممن يعادى اليهود فى
المنافسات الاقتصادية أو العملية ، لأنهم لا يعدمون بينهم
وبين هؤلاء اليهود صلة قديمة حين كانوا يوماً من الأيام
شعب التوراة ! •

أما الأمة العربية فلا رخصة معها من هذه الرخص
التي يصطنعها أعداؤها المتعصبون عليها ، بل تختفى كلها
ويحل محلها عدااء الميراث التاريخى ، وعداء الاستعمار ،
 وعداء الجهل ، وعداء الأنانية التي تغرى الجماعات أحياناً
بالتحزب والأثرة كما تغرى الأفراد من الناس • فليس

أيسر من تصديقهم لكل فرية تفتري عليها ، وليس اسرع
من انكارهم لكل محمدة أو سابقة من سوابق الفضل تنسب
اليها •

هذه اللجاجة البغيضة هي التي نريد أن نقضى عليها
ونقضى على آثارها في أذهان المتأثرين بها من صرعى
المذاهب الأجنبية بيتنا نحن الشرقيين ، وهم - للأسف
الشديد - غير قليلين •

ولكننا لا نريد أن نقضى عليها ونضع في مكان الخطأ
المنكر خطأ آخر من قبيله •

لا نريد أن نمحو فضلاً لصاحب فضل ، ولا أن
نبخس حقاً لصاحب حق ، ولا أن نبطل احتكار المزايا
الانسانية على أناس لكى ننقل هذا الاحتكار الى أناس
آخرين •

كل ما نريده أن ندفع شبهات القصور الأبدى المفترى
على أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الانسانية ،
ويرجى أن يكون لها فضل مثله أو يفوقه على أجيالها

المقبلة ، وهى فى مقامها الأوسط بين القارات ، وبين
العقائد والثقافات •

ولقد كان نصيب الأمة العربية من تلك الشبهات
« نصيب الأسد » ان صح هذا التعبير ، فأصابها منها أكبر
نصيب تصاب به الأمم ، منذ أيام الشعوبية الى أيام الاستعمار
والتبشير والآرية والشيوعية ! •

كان يقال عن العرب انهم بعثوا بالدين ولم يبعثوا
بالدنيا •

وكان يقال « انه لا يفلح عربى الا ومعه نبي » •
وكان يقال انهم لا يصلحون فى دولتهم وفى غير
دولتهم الا محكومين •

وقالوا ان العرب لا يحسنون صناعة الحكم ولولا
ذلك لما خرجوا من الأندلس بعد الغلبة عليها عدة قرون •
وقالوا انهم لا يحسنون فنون الحضارة ولولا ذلك
لكان لهم فن جميل غير نظم القصيد •

وقالوا انهم لا يحسنون من أعمال المعاش غير

ما تعودوه في البيادية من رعى الابل والماشية ، ولولا ذلك
لما غلبهم طراق بلادهم من الغرباء على أسباب المعيشة •

وكل أولئك الدعاوى الكبار أضعف من أن يثبت
على النظر المتأمل لحظات ، فضلا عن الثبات في مجرى
التاريخ •

فمن هم أصحاب الدولة الذين داموا في مستعمراتهم
أطول من دوام العرب ؟ أو تركوا بعدهم أثرا أبقي على
الزمن من آثارهم ؟

أهم الرومان سادة الاستعمار القديم ؟ أم هم البريطانيان
سادة الاستعمار الحديث ؟

ان الرومان خرجوا من كل وطن دخلوه ، ولم
يستطيعوا أن ينشروا ديانتهم في أمة حكموها ، بل كانوا
هم الذين انقادوا آخر الأمر لديانة المحكومين •

أما الانجليز فقد خرجوا من الولايات الأمريكية بعد
أن سكنها منهم معظم المهاجرين إليها ، وقد خرجوا من
الهند بعد أن استقروا في كل بقعة من بقاعها أكثر من

قرنين ، ولم يمكث سادة الاستعمار القديم ولا سادة
الاستعمار الحديث في مستعمراتهم كما مكث العرب في
الأندلس •

والانجليز ما تركوا من آثار الحضارة والثقافة أثرا
يقارب الأثر الذي أبقاه العرب في الأندلس وفي القسارة
الأوربية على الاجمال ، ومنه أثرهم في عصر النهضة
وعصر الإصلاح •

وقصور الحمراء والزهاء وما يماثلهما من القصور
التي قامت في الشرق على نماذج الفن البيزنطي جواب
ماثل للعيان لمن ينكر على الذوق العربي فنا جميلا غير فن
القصيد • فكل هذه القصور مميزة بذوقها العربي على
التلاصق القوطية والأواوين الفارسية والعمائر الرومانية
أو اليونانية ، منذ نشأتها الأولى الى قيام الدعوة الاسلامية •

وطابع الذوق العربي هو طابع النخلة العربية بقامتها
الهيفاء ، وفروعها التي تتلاقى في عقود المربعات كما تتلاقى
الأركان والأعمدة في هندسة البناء ، حيثما طبعته بطابعها

على الرغم من قيام البنائين أو المهندسين عليها من أبناء
الأمم الأخرى •

وليس أبعد من البعد بين البحر والصحراء ، ولكن
العرب ركبوا البحر فقبضوا بأيديهم على زمام الملاحة بين
الهند وفارس وسواحل أفريقية الشرقية ، فسمى البحر
كله باسم بحر العرب ، وسمى الشاطئ الشرقى من
سواحل أفريقية باسم السواحل حيث يتكلم الأفريقيون
الآن باللغة السواحلية كما يسميها الأوروبيون •

والتجارة من أسباب المعيشة ، فمن الذى بلغ بها
ما بلغه العرب فى الهند وأندونيسية وأفريقية الوسطى ؟

انها بلغت على أيديهم أن تكون فتحة فى عالم الروح ،
ولم تكن فتحة فى عالم المال وكفى ، اذ أصبح فى تلك
البقاع قرابة مائتين من الملايين من المسلمين لم يعرفوا دينهم
من غير أولئك التجار الناجحين •

هذه الوقائع تصحيح بين لدعوى العصبية الجنسية
يرشد العقل البشرى الى الصواب فى مسألة من أخطر

المسائل العالمية ، ذات الأثر المتشعب الى كل زاوية من زوايا
العالم ، وكل علاقة من علاقات بنى الانسان •

نعم • هى تصحيح للعقل البشرى يأتى فى أوانه
وليس قصارى الأمر فيها أنها دفاع عن العرب أو تبرئة
لهم من أقاويل دعاة العنصرية المستعمرين والشعوبيين
والمرددين لأصداء الغابر المهجور •

والرأى الجلى فى هذه الدعاوى العنصرية اذن أنها
من قبيل « الاشاعات » التى تروجها المصالح الى حين ، ولكن
هل هى اشاعات تبتدىء وتنتهى حول النزاع على المصالح
ومفاخر الأنساب ؟ وهل نفهم من بطلان الدعاوى العنصرية
أن عناصر السلالات تتساوى فى ملكات العقول ومزايا
الأخلاق ؟

ان من يقول بذلك ينقض الواقع الشاهد فى الحاضر
كما ينقض الواقع الذى حفظته التواريخ ، فلا نكران
لاختلاف الأمم فى التفكير والسلوك ، وانما ينكر الباحث
المنصف أن يعزى هذا الاختلاف الى أسباب أصيلة ينفرد
بها عنصر من عناصر البشر دون سائرهما ، وينصف

الأجناس جميعاً حين يعزو كل مزية الى أسبابها الطبيعية
التي تتأثر بها كل أمة تعرضت لمؤثراتها ، ولا يقصر مزية
من المزايا على قوم يحتكرونها في جميع الأحوال •

والمثلان البارزان اللذان يذكران في معرض التمييز
بين الخصائص الجنسية كفيلان بابرار هذه الحقيقة في نصابها
الذي يستقر عليه البحث عن مزايا العقول والأخلاق بين
جميع الشعوب •

هذان المثلان هما مثل اليونان واليهود : أولهما
يضرّبونه بطلب العلم ، وثانيهما يضرّبونه بطلب المال •

فعندهم أن اليونان قد امتازوا بحب المعرفة حبا
للمعرفة ، لأنهم نموذج العقل الأوربي المطبوع على الفهم
وحب الاستطلاع • وأن اليهود قد امتازوا بالمهارة
الاقتصادية فلا يضارعهم فيها شعب من شعوب العالم منذ
عهد بعيد •

والواقع أن شعوب العالم العريقة قد طلبت المعرفة
كما طلبها اليونان ، ولكن الشعوب التي عاشت في أودية
الأنهار الكبار - كما تقدم - قامت فيها الكهانة القوية الى

جانب الدولة القوية فتحوّلت المعرفة الى الكهانة ، وأحاط بمعارفها ما لا بد أن يحيط بها من أسرار الكهانة وقيود التقاليد ، وهكذا حدث في القارة الأوربية نفسها يوم قامت فيها السلطة الدينية القوية ، وحجرت على المفكرين أن يتعرضوا لمباحث المعرفة في أصول الأشياء وحقائق الوجود •

والواقع أن اليهود لا يفوقون غيرهم في القدرة على تحصيل المال ، وقد تسابقوا بميدان واحد في وادى النيل مع الأرمن واليونان والجاليات الشرقية فلم يسبقوها في تحصيل الثروة ، ولا في تنويع مواردها ، ولعلمهم لولا تضامنتهم في بلاد العالم التي ينتشرون فيها يرجعون الى ما وراء الصفوف الأولى في المهارة الاقتصادية وفي تدبير المال على الاجمال •

فلا احتكار لمزية قومية بغير سبب ولا فرق بين الأمم اذا تشابهت الأسباب •

وأمة العرب بين هذه الأمم لم تقصر ولن تقصر عن أمة سابقة في مضمارها حيث تنهيا لها أسباب العلم وتمهد

لها السبيل الى الغاية ، ولن تقف هذه الغاية دون أمد من
الآماد •

واذا كان من حقنا نحن الشرقيين جميعا أن نؤمن
بهذه الفكرة الصالحة ، فمن واجبنا أن نحترس من مغبة
الاغترار بها ومن سوء الفهم الذى يخشى أن تسوقنا اليه •
فمن سوء فهمها أن نفهم أننا مبرأون من العيوب
معصومون من الخطأ ، أو نفهم أن عيوبنا هينة لا تكلفنا
المشقة فى اصلاحها ، وأن أخطاءنا قليلة لا تعاودنا فى كل
آونة من حياتنا مع أنفسنا أو حياتنا مع أقوامنا •
كلا بل لنا عيوب غير هينة ، ولنا أخطاء غير قليلة ،
غاية ما يعزينا فيها أن نؤمن بأننا قادرون على تصحيحها وعلى
اجتنابها ، وأنها ليست بالأبدية التى لا تفارقنا كما زعم
المفترون علينا •

أما تلك العيوب التى تفتري علينا فهى التى تفرض
علينا القصور كارهين وطائعين كما يزعمون ، وهى التى
نعرفها أو نجهلها على حد سواء ، لأن الحيلة فيها عبث ،
والأمل فى الخلاص منها مفقود •

تلك العيوب تنكرها ونشتد في انكارها ، وليس
قصارانا في تبرئة أنفسنا منها أننا نحب أنفسنا ، وأنا نشتد
أن نحمدها بحقها أو بغير حقها ، وإنما تنكرها ونشتد في
انكارها لأننا نشتد الى خير سند من الواقع الذي لا ريب
فيه ، ولأننا نعلم من هذا الواقع أننا سبقنا السابقين الى
ثقافة المعرفة وثقافة العقيدة قبل أربعين قرناً ، وأنا أعطينا
العالم حظاً منهما لا يزول منذ أربعة عشر قرناً ، وأن
ما كان في ماضى الزمن غير مرة ليكون غير مرة في
الزمن القريب ، وفي الزمن البعيد ♦

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٣٣٧

التمن ٥ قروش

هذا الكتاب :

يهدف هذا البحث الذى كتبه اديبنا الكبير عباس محمود العقاد الى ان يدفع شبهات القصور الثقافى الأبدى المفترى على أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الانسانية ، هى الأمة العربية، ويرجى ان يكون لها فضل مثله ، او يفوقه على أجيالها المقبلة ، وهى فى مقامها الأوسط بين القارات ، وبين العقائد والثقافات .

الكتاب القادم :

الانسان والبحر

تأليف : ريان عبد الفتاح الشافعى

Bibliotheca Alexandrina



0249949